A 66

طه حسين

صوت باريس

٢

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

طه حسين

صوت باريس

٢

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

893.1H954
W3
v.2

ميشيل بوبير

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « هنرى بيك »

وكان الكاتب يستطيع أن يسميها غير هذا الاسم ، وأن يتخذ أى اسم من أسماء أشخاصها عنواناً لها . فجميع أشخاص هذه القصة خليقون أن يعطوها أسماءهم لأنهم جميعاً خليقون بالعناية مثيرون فى نفسك رغبة الاستطلاع وباعثون فيها عاطفة قوية ، عاطفة الإعجاب حيناً وعاطفة الإشفاق حيناً آخر ، وعاطفة الغضب مرة ، وعاطفة الرضا مرة أخرى . كلهم خليق بالعناية ، وكلهم يصلح موضوعًا لبحث نفسى منتج قوى يلذ العقل ويلذ الشعور معا . وقد يكون هذا الاسم الذى اختاره المؤلف أظهر أسماء القصة ، وقد يكون هذا الشخص الذى آثره الكاتب أشد أشخاص القصة استثارة لإعجاب الجماهير وعامة القراء والنظارة . ولكنى أوثر على هذا الشخص مع إعجابى به وعطفى عليه شخصين آخرين : أحدهما يستحق الإعجاب المطلق والإجلال الذى لا حد له ، والآخر يستحق شيئا من الإشفاق غير قليل ويدعو مع استحقاقه للاشفاق إلى شىء كثير من الروية والتفكير .

وليس هؤلاء الأشخاص الثلاثة وحدهم هم الذين يستحقون العناية ويضطرون القارىء إلى التأمل فيهم والتفكير فى أمرهم ، بل هناك أشخاص ثلاثة آخرون كلهم خليق بالتفكير ، وكلهم يستثير فى نفسك عاطفة قوية كما قلت . وفى الحق أنى لست أدرى أنحن بازاء قصة واحدة أم قصتين أم قصص ثلاث أم أكثر من هذه القصص الثلاث أيضاً . بل فى الحق أنى لست أدرى أنحن بازاء قصة أو قصص تدرس الأشخاص وحياتهم النفسية القيمة ، أم نحن بازاء قصة أو قصص تدرس طائفة من الأخلاق وضروباً من أطوار النفس الإنسانية عامة وألواناً من الحياة الإنسانية من حيث هى . وقد نكون بازاء هذه القصص جميعا ، وقد نستطيع أن ننظر إلى هذه القصة من جميع هذه الأنحاء . فمن أراد درس الأشخاص وما يمتازون به من قوة وضعف وما يتصفون به من خلال تدعو إلى الإعجاب ونقائص تثير الغضب وجد فيها حاجته . ومن أراد درس الآراء والنظريات الخلقية والعلمية وما بينها و بين حياة الناس من صلة وما لها فى حياة الأفراد والجماعات من أثر وجد فيها حاجته . ماذا أقول ! بل إنك تستطيع أن تلتمس فيها شيئا آخر غير الأشخاص وحياتهم وعواطفهم وغير النظريات العلمية وصلاتها وآثارها ، تستطيع أن تلتمس فيها السياسة ومكانها من أهواء الأفراد والجماعات وأثرها فى نفوس الأفراد والجماعات أيضاً ، تستطيع أن تجد فى هذه القصة الممتعة هذا كله وأكثر من هـذا كله ، وأنت تجده فى دعة

وهدوء واطمئنان لا يحول بينك وبين الحزن الشديد ولا يحرمك الابتسامة الخالصة الصافية ، ولكنه يعطيك منهما حظا معتدلا يتيح لك أن تتعظ ولكن فى غير يأس ، وأن ترضى ولكن فى غير إسراف ، ويجلى لك الحياة كما هى مملوءة بالخير والشر ، قد امتزج فيها الحلو والمر والتأم فيها النعيم والشقاء . وأنت إلى هذه اللذة العقلية والقلبية لا تحرم اللذة الفنية أيضا ؛ فاللفظ سهل حلو منوع رشيق ، والأسلوب عذب سائغ مريح . تقرأ فلا يخيل إليك أنك تقرأ ، وإنما تحس أنك تحيا وتشهد هذه الحركات والأطوار المختلفة التى تكون الناس وحياة الناس .

ولكنى لا أريد أن أطيل فى تقريظ القصة أو نقدها ، فهى فى نفسها طويلة ، وإنما أريد أن أظهرك عليها فى تلخيص شديد ودون إلحاح فى المقدمات . وكيف أظهرك على هذه القصة التى هى فى حقيقة الأمر طائفة من القصص دون أن أقدم إليك أشخاصها قبل كل شىء ؛ فحياتهم معقدة ، ونفوسهم على سذاجتها شديدة التركيب ، وكلهم يمثل لوناً من ألوان الناس وناحية من نواحى الحياة الاجتماعية ؛ فهم ليسوا أفرادا ، وإنما هم جماعات ، وحظوظهم من الحياة ليست حظوظ الأفراد ، وإنما هى النتائج الطبيعية التى تنتهى إليها حياة الجماعات وما يختلف عليها من الأطوار .

تجد فى هذه القصة شخص هذا الرجل الذى كان غنيًّا واسع الغنى ومثرياً ضخم الثروة ، وشريفاً مؤثل المجد ، نشأ فى أسرة منصرفة إلى ما يدعو إليه الشرف من ضروب المجد والزخرف والزينة واللهو ،

ولـكنه انصرف إلى العلم فأحبه وتهالك عليه ووقف على تحصيله والنبوغ فيه جهوده وأوقاته وثروته ، وأبلى فى ذلك أحسن البلاء ، ولـكنه لم يظفر من هذا كله بشىء ، وانما استقبل الهرم والشيخوخة فى فقر و بؤس وشقاء . على أن هذا كله لم يغير من هذه النفس الراضية التى كونها البحث العلمى وعلمها أن تكون جلدة قوية شديدة الاحتمال ، فهى مبتسمة أبدا ، وهى راضية أبداً ، وهى طيبة شديدة الميل إلى العفو والمغفرة ومعونة الضعفاء والإغضاء عن هفوات الناس . هذا الشخص هو البارون فون دير هلويك .

وتجد فى القصة شخصاً آخر نشأ فى أسرة بائسة معدمة ، فذاق ألوان الألم وتقلّب فى ضروب الشقاء ، ولـكنه أحب العلم كما أحبه ذلك الرجل الغنى ، ولم يقف عليه مالاً ولا ثروة ، و إنما وقف عليه ذكاء وقوة فوفق لـكثير ، و إذا هو يظفر بالاختراع بعد الاختراع ، و إذا هو يستعين بالأغنياء وأصحاب الثروة على تحقيق آماله العلمية ، فيخدعونه و يعبثون به ، و يستغلون ذكاءه وعلمه ، وهو يعلم هذا ولا يحسن الدفاع عن نفسه ، فيتعزى عن آلام الحياة بالعلم مرة و بالخمر مرة أُخرى ، حتى يعرض له الحب ، فاذا هو قد أضاء نفسه وملأ قلبه ونظم حياته و برأه من داء الخمر ، فانصرف إلى العلم وجد فيه ، وفرغ للحب واستعان به ، و إذا هو عالم ، و إذا هو غنى قد ظفر بكل ما كان يريد من علم وحب وسعادة . ولـكنه لا يكاد يستمتع بنتيجة هذه الحياة الطويلة الشاقة حتى تظهر له الخيانة

فتقضى على كل ما كان قد حصل وأفاد ، وتصرفه عن هذا البحث المنظم المنتج إلى ذلك البحث المشوش المضطرب . تصرفه عن العلم والحب إلى العلم والخمر ، فما يزال يبحث ويشرب حتى يقتله البحث والشرب . وهذا الشخص هو ميشيل پوبير والذى اتخذ الكاتب اسمه عنواناً لهذه القصة .

وتجد فيها شخصاً آخر ذكيا قوى الذكاء ، غنيا موفور الغنى ، قد اجتهد فى أن يجعل ذكاءه وثروته وسيلة إلى استغلال العلم والعلماء . ولكن ذكاءه أعظم من ثروته ، وأمله أوسع من جهده ، فهو يمضى أمامه غير مقدر للظروف ولا متبصر فى العواقب ، مستغل هذ العالم وآثاره فيفقره ويفقر نفسه ، ولكنه يجد فى نفسه من القوة ما ينهضه من كبوته ، فما يزال يمضى فى طريقه متخلصاً من كل ضائقة ، ناهضا من كل عثرة حتى يعرض له الحب الآثم من جهة والحرص على الثراء من جهة أخرى ، وإذا هو قد انتهى إلى الضائقة التى لا مخلص منها ، وإذا هو بين اثنين : الموت والسجن ، فيؤثر الموت ، وهذا الشخص هو : ديلا روزريه زعيم الأسرة التى تدرسها هذه القصة .

ثم تجد فى هذه القصة شخصاً رابعاً هو امرأة . هذه المرأة خليقة بإعجابك كله ، وخليقة بإشفاقك كله ، وخليقة أن تكون المثل الأعلى للنساء . أحبت زوجها وكلفت به وأخلصت له وقدمت إليه ثروة ضخمة يوم تزوجت ، ووقفت حياتها كلها على معونته وتشجيعه

ومواساته وتربية ابنتها . أخلصت فى هذا كله راضية مبتسمة ، ثم أحست من زوجها الخيانة والإثم فتألمت ولكن فى صمت ، وبكت ولكن فى استخفاء ، ثم رأت زوجها وقد تورط فى الإثم وألحت عليه أثقال الحياة فعفت له عن خيانته وردت إليه قلبها وحبها كاملين ، وبدأت تغتبط بهذه الحياة المقبلة يملؤها البؤس والشقاء ، ولكن يضيئها الحب والوفاء . غير أن زوجها يسألها أيهما خليق بالعناية والحرص : الحياة أم الشرف ؟ فتجيبه : الشرف ، فتقتل زوجها بهذا الجواب وتعرض أسرتها لحياة ملؤها الشر والمكروه ، على أنها تحتمل هذا الشر راضية مطمئنة ، وتجاهده قوية جلدة وتكاد تنتصر عليه . قد أخلصت لزوجها ما عاش ، وهى الآن مخلصة لابنتها ، وهى تكاد تجنى ثمرة هذا الإخلاص ، ولكن الخيانة كانت تنتظرها ، فهى لا تظفر من هذه الحياة الطويلة الشاقة إلا بهذا الإذعان المر الهادىء للقضاء . وهذه المرأة هى زعيمة الأسرة التى يدرسها الكاتب فى هذه القصة .

وامرأة أخرى تجدها فى هذه القصة ، خليقة بالتفكير والروية ، خليقة بالعناية والدرس ؛ لأنها تمثل التربية السيئة وأثرها فى الحياة ، ولأنها تمثل هذه الظروف المنكرة التى تعرض للشباب ولما يتهيأ لمقاومتها فتفسد عليه أمره وتصرفه عن طريق الرشد إلى طرق الغى والفساد . نشأت فى ثروة وعز بين أب يحبها ويسرف فى حبها وأم تؤثرها وتحنو عليها ، فلم تذق للشقاء طعماً ولم تبل مرارة الحاجة ، ولم تعرف كيف

تحتمل الحرمان ، و إنما كانت موضوع عناية هذين الأبوين حتى شبت ناعمة راضية طامعة ، لا ترضى من الحياة بما فيها و إنما تستزيدها الخير وتطلب إليها ما لا تملك . وقد قرأت كتبا وقصصا أفسدت عليها عقلها أو كادت تفسده ، فهى منصرفة إلى الخيال مغرقة فى الأمل ، لا ترى الحياة كما هى ولا ترضاها كما هى . ثم عرض لها فتى جميل فاتن غنى ، أظهر لها الحب فأحبته وما كان إلا مخادعا ، ثم حاولت أن تقاومه وتتقى شره فلم تجد إلى ذلك سبيلا فتورّطت فى الإثم ، ولكنها استطاعت بعد ذلك أن تندم وتمحو خطيئتها . وما كان أسعدها بأن تجد الحياة الهادئة المستقيمة وأن تخلص لزوج يحبها و يكلف بها ، وقد وجدت هذا كله وكادت تظفر بالسعادة لولا أنها أرادت أن تكون هذه السعادة خالصة صافية ، فاعترفت لزوجها بالإثم فقتلت زوجها بهذا الاعتراف ، واضطرت هى إلى أن تتردى فى الهوة التى كانت قد خلصت منها فعاشت فيها حيناً ، ثم جاهدت حتى خلصت منها مرة أخرى ، ولكنها لم تجد بعد هذا الخلاص إلا الحزن والشقاء والندم الذى اتخذته قريناً لحياتها ، وهذه الفتاة هى هيلين بطلة هذه القصة .

وهل أذكر لك هذا الفتى المخادع الذى أشرت إليه والذى لا يرى الحياة إلا لعباً ولهواً ولا يرى الأخلاق إلا سخفاً وهزؤا ، والذى لا يرى النساء إلا لذة ومتعة ؟ .

وهل أذكر لك هذه الخادم التى أحبت سادتها ووفت لهم وشاركتهم

فى الخير وأعانتهم على الشر، ولكنها رأت آثام الحياة ونقائصها فآثرت أن تترك هذه الآثام والنقائص وأن تفارق باريس .

هؤلاء هم أشخاص القصة . كلهم كما قلت خليق بالعناية والتفكير . أفأنت محتاج بعد هذا كله أن ألخص لك القصة تلخيصا مفصلا ، أم ترى مثلى أنى أستطيع بعد هذا التفصيل أن أوجز لك هذا التلخيص إيجازا ؟ .

* * *

نحن فى باريس فى بيت « ديلا روزريه » نرى ذلك العالم الشيخ الذى أشرت إليه فى أول هذا الفصل يتحدث إلى زعيمة الأسرة ، وهما يعرضان الحياة وما فيها من لذة ومن ألم ، يذكران الفقر والغنى ، والصحة والمرض ، والموت والحياة . وصاحبة البيت تسأل جليسها عن قريب له من الأشراف هو الكونت دى ريفاى ، قدِّم إليها منذ حين ، وكأنها تفكر فى أن تتخذه زوجا لابنتها ، فلا يذكره الشيخ إلا بسوء ، فهو شريف مؤثل المجد ، ولكنه رجل لا خُلق له ولا دين ولا كرامة ولا مبدأ ، ينفق مائة ألف فرنك فى الميسر ، ولكنه لا ينفق فلسا واحدا فى الصدقة . ويتصل بين الجليسين هذا الحديث حتى تحس المرأة أن زائرين قد أقبلوا ، فتنصرف ، وإذا الخادم يدخل ومعه رجل آخر ينازعه ويدافعه وهو ميشيل پوبير ، فينصرف الخادم ويتحدث الرجلان فتعرف من حديثهما ما قدمت لك فى وصفهما ، وتعرف أن

ميشيل پو بير هذا رجل ذكى عالم بمخترعاته ولكنه فقير، يستغله التجار الذين يتجرون بمخترعاته ، ومنهم صاحب هذا البيت . وقد أقبل هذا العالم المخترع بعد أن أسرف فى شرب الخمر متعمدا ؛ ليحاسب هـذا الرجل وليستخلص منه حقوقه . وما هى إلا أن يقبل صاحب البيت فيدافع العالم عن نفسه حينا ، حتى إذا أحسّ منه الإصرار على المقاومة أراد أن يفرغ له ، فيسأل الشيخ عن حاجته ، فاذا الشيخ قد أقبل يسأله المعونة على الحياة ، ولكن الرجل يعتذر وينصرف الشيخ العالم راضيا عاذراً . ويخلو صاحب البيت إلى مطالبه ، فلا يكادان يتحدثان حتى نفهم أن ميشيل پو بير صاحب حق ، وأنه قد استكشف فى معمله طائفة من الألوان يستغلها صاحب البيت ولا يعطيـه من ربحه شيئا . وقد أقبل يطلب حسابه ، وصاحب البيت يدفعه عن نفسه بشىء من المال يعرضه عليه فيأبى إلا الحساب . وهما فى هذا الجدال إذ تقبل «هياين» فتتحدث إلى أبيها فى دعة ودل ودعابة ، وتسخر من هذا الرجل السكران الذى يهذى ويصيح ، ويتحدث إليها أبوها فى رفق وحب وإكبار ، حتى إذا انصرفت الفتاة كان قد تغير فى نفس هـذا العالم السكران كل شىء ، لأنه أحب الفتـاة وكلف بها ، فهو لا يطلب حسابا وهو لا يقبل مالا ، وهو يحس أن صاحبه فى حاجة إلى المعونة فيعرض عليه معونته ، ولكنه يخطب إليه ابنته ، فيأبى الرجل ؛ لأن

ابنته لا ينبغى أن تكون سلعة يتجر بها ؛ ومع ذلك فان الرجلين يفترقان على خير ما يفترق الناس .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى فنحن حيث كنا فى الفصل الأول ، وقد مضى حين على ما قدمت لك ، ونحن نرى صاحبة البيت وحدها محزونة كئيبة تنتحب وتتحدث إلى نفسها بكلام يفطر القلوب ، فيه رثاء لحال المرأة المخلصة الوفية التى قدمت نفسها وحبها ومالها للرجل ، فانتفع بهذا كله فى أثرة وعقوق ، ثم انصرف عن امرأته إلى إثمه وخيانته . وقد دخلت عليها بنتها ، فهما يتحدثان ، ونفهم من حديثهما أن زعيم الأسرة شقى مثقل بالهموم يكتم أمره عنهما جميعاً ، وأن امرأته تريد أن تتبين مصدر هذا فلا توفق ، وهى تلوم زوجها على إسرافه ، وتعاتب ابنتها فى ترفها . وما هى إلا أن تعرضها للزواج ، فإذا الأم تذكر ميشيل پو بير والفتاة تزدريه لأنها رأته سكران . ولكنه قد انصرف عن الخمر وأصلح من أمره ونظم حياته ، فهو رجل مستقيم طيب النفس طاهر القلب ذكى الفؤاد خليق أن يكفل السعادة لزوجته . ولكن الفتاة لا تسمع لشىء من هذا وهى لا تريد أن تتزوّج ، وقد تركتها أمها وانصرفت تريد أن تزور قبر أبو يها .

أحق أن الفتاة لا تريد أن تتزوج ؟ كلا ! . إنها تحب ، وتريد أن تتزوج . انظر إليها ، لم تكد تخلو إلى نفسها حتى دعت الخادم وأمرتها

أن تذهب إلى الكونت دى ريفاى فتنبئه بأنها وحدها الآن ، وأنها تريد أن تراه . وانظر إليها وقد خلت إلى نفسها وهى تذكر حبها لهذا الشاب وألمها بهذا الحب وإعجابها بهذا الفتى الذى يحبها ويأبى الزواج . وقد أقبل هذا الفتى ، فلا يكاد يتحدث حتى نحس منه غروراً وفجوراً وحرصاً على اللذة وحدها وازدراء لقواعد الأخلاق والحياة الاجتماعية . وهو يدعو الفتاة إلى الهرب معه والفتاة تأبى إلا الزواج ، وقد اختصما وهما يكادان يفترقان . ولكن زعيم الأسرة قد أقبل ذاهلا مضطرباً ، وقد دفعت إليه الخادم كتاباً ، قرأه فلم يزدد إلا ذهولا واضطراباً . وانظر إليه يمسك صاحب ابنته ويريد أن يخلو إليه ، فإذا انصرفت ابنته وتحدث الرجلان رأينا زعيم الأسرة يطلب إلى صاحبه المعونة المالية فيأباها عليه ، وقد انتهى به الجزع إلى أقصاه ، فهو يقص أمره ويا شَرَّ ما يقص! فقد اضطرته أعماله المالية إلى التزوير ، فإما أن يجد المال وإما أن يلقى فى السجن . وقد سمع صاحبه لهذا ثم نهض وهو يرى أنه ليس من هذا المأزق مخرج إلا الموت . وتقبل زعيمة الأسرة ، فتخلو إلى زوجها وتسأله عن أمره ، وما تزال تلح عليه حتى تظفر منه بالجواب وتعلم أن الأسرة قد فقدت ثروتها كلها . ولكن هذا شىء ميسور يمكن احتماله إذا ظفرت الأسرة بما كان يجمعها من حب ، وأنَّى لها هذا الحب والرجل يخون امرأته وينفق حياته فى اللهو والإثم ! ولكن الرجل تائب معتذر ، وهو يستعطف امرأته ويتضرع إليها وقد طابت له نفسها فهى تعفو عنه ،

وهما خليقان أن يستأنفا حياة سعيدة على ما فيها من فقر و بؤس . ولكن الرجل يسأل امرأته وقد عرف أن الفقر لا يخيفها : هبى رجلا بين اثنتين إما أن ينقذ حياته ، و إما أن ينقذ شرفه ، فما أخلق الأمرين بهذا الرجل ؟ تجيبه : إنقاذ الشرف . فيقول الرجل لنفسه : لقد قتلتنى ، ثم يطلب إلى امرأته بعض الأمر ، فإذ انصرفت إلى الغرفة المجاورة قتل نفسه .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضت أشهر على هذا ، ونحن فى ضاحية من ضواحى باريس فى بيت لا تظهر عليه النعمة ولكنه ليس سىء الحال . ونحن نرى الأم تتحدث إلى ذلك الشيخ العالم الذى رأيناه فى الفصل الأول ، ونفهم من حديثهما أن المرأة تلتمس لابنتها عمل مربية فى أسرة غنية شريفة ، وأن هذا الشيخ قد وجد لها ما تريد ، ولكنه ينصح لها ألا تقر ابنتها على هذا ، وأن تحبب إليها الحياة وتأسيس أسرة ، فتجيبه : إن ابنتها ترفض الزواج رفضاً قاطعاً و إنهما قد سئمتا هذه الحياة فى هـــذا البيت الذى أسكنهما فيه ميشيل پوبير قريباً من معمله . وقد فهمنا أن ميشيل پوبير قد صلح أمره حتى أصبح رئيس مصنع ضخم ، وحتى أصبح غنيا يحبه العمال ويخلصون له . وهما فى هذا الحديث إذ يقبل أحد العمال فيدعو السيدة إلى المصنع ويلح فى هذه الدعوة ، فتنصرف

المرأة وتترك الشيخ مع ابنتها . فينصح الشيخ للفتاة ألا تتم ما أرادت وينصح لها بالزواج ولكنها تأبى ، وما يزال بها حتى تنبئه جلية أمرها . ذلك أنها لقيت بعد موت أبيها عاشقها الكونت ، فأظهر حباً لها وعطفاً عليها ، ثم أرادها على الإثم فدافعته وامتنعت عليه ، ولكنها رأت منه الشر وعلمت أنه لن يتركها حتى يفتك بها ولو جثة هامدة فأسمحت ، وهى الآن تريد أن تكفر عن سيئتها بحياة هادئة لا لذة فيها ولا حب . ولكن الخادم أقبلت تستأذن لهذا العاشق ، فينصح الشيخ برده ، وتأبى الفتاة إلا استقباله ؛ لأنها تطمع منه فى أن يتزوجها ، فينصح الشيخ أن تتركه معه حينا فتفعل . ويتحدث الرجلان ، فإذا الشيخ يلوم الشاب ويؤنبه ، وإذا الفتى لا يُظهر أمام هذا اللوم إلا ازدراء لكل خلق وعبثا بكل فضيلة واحتقارا للزواج ، بل احتقارا لصاحبته ، فهو إنما أقبل ليلتمس عندها اللذة . أليس قد أسمحت له مرة ؟ فلم لا تمضى فى هذا الإسماح حتى إذا انصرفت عنها نفسه التمس اللذة عند غيرها ؟ ! والفتاة تسمع هذا كله فى مخبئها ، وإذا هى قد أقبلت مغضبة ثائرة فبلغت من تحقير هذا الشاب وازدرائه بكلام غليظ ما شاءت أن تبلغ . ولكننا نسمع ضجيجاً ، ونرى الأم مقبلة ومعها ميشيل پو بير ومن ورائهما طائفة من العمال وأهل القرية وكلهم يصيحون بحياة ميشيل پو بير . ولست أطيل عليك بتلخيص هذا القسم اللذيذ من القصة ، فحسبك أن تعلم أن ميشيل پو بير قد عرض

حياته للخطر لينقذ عماله من كارثة ، وأقبل العمال يشكرونه و يهنئونه . وكانت فى ذلك خطب تمس السياسة الفرنسية عقب الحرب . وانصرف هؤلاء الناس جميعاً إلا ميشيل بو بير . و إذا نحن نرى الشيخ يتقدم إلى الأم يخطب إليها ابنتها لنفسه . فنرى اضطراب الأم والفتاة وغضب ميشيل . ولكننا فهمنا أن هذا الشيخ لم يتقدم بهذه الخطبة إلا ليعلن أمام ميشيل وأمام الفتى أنه على شرفه ومكانته يكبر الفتاة و يراها أهلا للاقتران بأرفع الناس مكانة وأعظمهم شرفاً .

* * *

فاذا كان الفصل الرابع فنحن فى باريس فى بيت لم نعرفه من قبل ، وقد تم الزواج بين هيلين وميشيل بو بير . ولست أخلص لك ما بين الأم وابنتها من حديث ، ولا هذه الصلوات الحارة التى يتقدم بها الزوج إلى امرأته ، ولكن يكفى أن تعلم أن هذا الزوج مازال يذكر حبه وتأثير هذا الحب فى حياته حتى أثر فى امرأته تأثيراً شديداً فأحبته ، ولكن أرادت ألا تخدعه ولا تغشه فاعترفت له باثمها وسألته أن يعفو عنها . ولم يكد الرجل يسمع هذا حتى ثار ثائره وهم بامرأته يريد أن يقتلها ، ثم انصرف عنها صائحاً وترك البيت . وهى الآن وحدها تبكى وتنتحب ، ولكنها قد سئمت الحياة وندمت على ما كان منها من صدق و إخلاص ، و إذا هى تدعو الخادم وترسلها إلى عاشقها . وما هى إلا لحظات حتى يأتى هذا العاشق وقد أزمعت الفتاة باكية أن

تعش عيشة الإثم بعد أن لم توفق لعيشة الطهر، وقد أسدل الستار ورفع . وإذا أنت ترى ميشيل سكران يترنح سكراً وهو يتغنى سوء حظه ، وما زال يتغنى حتى يسقط صريعاً أمام باب الدار ، وإذا هذا الباب يفتح وتخرج منه امرأته ومعها عاشقها فيكادان يطآن جسمه فى طريقهما .

* * *

فاذا كان الفصل الخامس فنحن فى معمل ميشيل پوبير نرى هذا الشيخ العالم يتحدث إلى الطبيب فنفهم من حديثهما أن ميشيل بوبير قد جن وأنه أشرف على الموت ، وأن الخمر هى التى انتهت به إلى هذه الحال ، ثم يخرج الطبيب وتأتى أم الفتاة . فنفهم أنها قد وقفت نفسها على صهرها منذ ظهر إثم ابنتها فانقطعت للعناية به والسهر عليه ، وهى تحبه كما تحب ابنها وتشفق عليه إشفاقا شديداً . والشيخ يذكر لها ابنتها ويستعطفها عليها وينبئها بأن قد فسد ما بينها وبين عاشقها فلا يجد منها إلا سخطاً وإعراضاً ، فهى لاتعرف ابنتها ولا تريد أن تعرفها ، ولكنها تنظر فاذا ابنتها مقبلة ، وإذا هى قد نسيت كل شىء وأطبقت ذراعيها على هذه الفتاة الآثمة تقبلها وتصفح عنها وتلح عليها فى العودة إلى حيث كانت حتى لايراها زوجها . غير أن هذه الفتاة إنما أقبلت لترى زوجها وهى تلح فى هذا ، وأمها تدافعها . ولكن انظر هذا ميشيل بوبير قد أقبل ذاهلا مفقود الرشد يخيل إليه أن أم امرأته أمه وهو يهذى بكلام لاخير فيه . فإذا رأى امرأته أنكرها ولم يعرف من أمرها

شيئاً . ولكن امرأته تلح حتى يخلو إليها ، فتحاول أن تحدثه عن نفسها وأن تذكره ما كان من أمرها فلا يذكر شيئاً أو قل إنه يألم ويشتد ألمه لهذه الذكرى ، وإذا هو مختنق ، وإذا هو يدعو إلى المعونة ، فتحاول امرأته أن تدعو أمها فيتبعها صائحاً : إنك تسرقين الماس . وانظر إليه قد عمد إلى شيء فاستخرجه ، فإذا قطع ضخمة من الماس ملأت المعمل نوراً ، تلك هي نتيجة بحثه العلمى قد انتهى إليها بين السكر والبحث ، فاستطاع أن يحول الفحم إلى ماس ، وإلى هذه النتيجة كان يسعى طول حياته وقد ظفر بها . ولكن أدركه الجنون . وانظر إليه الآن يظهر هذه النتيجة ويحرص عليها ، ولكنه مضطرب ذاهب القوى ، فهو يسقط صريعاً ، وتسقط قطعة الماس من يده فتتحطم ويدخل الشيخ ومعه أم الفتاة ، فإذا نظر إلى هذا الصريع ومن حوله قطع الماس قال : لقد فقد الناس عالماً كبيراً ، وفقد العلم سرًّا عظيماً .

يناير سنة ١٩٢٥

الإغواء

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « شارل ميرى »

ولولا أنى خشيت الإغراب أو الغموض لوضعت لهذه القصة عنواناً غير هذا هو التسويل ؛ فهذه الكلمة تترجم العنوان الفرنسى ترجمة دقيقة حرفية . ولكنى أقرأ فى قاموس الفيروزابادى : سوّلت له نفسه زيّنت ، وسوّل له الشيطان أغواه . فليكن عنوان القصة الإغواء ، وليكن هذا الإغواء قد صدر عن النفس أو عن الشيطان ، فالأمر سواء . وما أحسب إلا أن لكل نفس من أخلاقها وأهوائها وعواطفها شياطين يغوونها و يدفعونها إلى الشر ، وملائكة يرشدونها و يحببون إليها الخير . ولقد كنت حين بدأت أقرأ هذه القصة أعتقد أنى سأحمدها لك فى غير تحفظ ، وسأثنى عليها فى غير حيطة ، ولكنى لم أكد أمضى فى قراءتها حتى حسبت أن الكاتب لم يصل بعد من فنه إلى هذه المنزلة التي يحمد فيها دون تحفظ ، و إنما هو فى سبيله إلى هذه المنزلة .

أنت تعرف هذا الكاتب ، فقد حدثتك عنه فى شتاء السنة الماضية يوم لخصت لك قصته المعروفة « الأمير جان » ولعلك تذكر أنى أشرت فى مقدمة هذا التلخيص إلى أن عناية كاتبنا هذا منصرفة إلى الحركة

والعمل أكثر من انصرافها إلى الرأى والتفكير ؛ فهو يريد أن يؤثر فى النظارة بمؤثرات خارجية تصل إلى نفوسهم من طريق الحس ، لا بهذه المؤثرات الداخلية التى تنشأ فى طيات النفس وأعماق الضمير . أريد أنه يكلف الممثلين ضروباً من الحركة وألواناً من الاضطراب ، وينقل الملعب من مكان إلى مكان ، ويكثر من الأشخاص ومن أحاديثهم وينوع أخلاقهم وصفاتهم ، ويفاجىء النظارة بما لم يكونوا ينتظرون ؛ فيملك حسهم ويبهرهم ، ويصل من هذا كله إلى مايريد من تلهيتهم وتسليتهم دون أن يصل إلى شعورهم العميق . هو متصل بحسهم وبهذه الكلمات التى تمكن الإنسان من أن يلهو لهواً هادئاً لا يثير فى نفسه حزناً ولا يبعث فى قلبه أسى . هو يضمن للنظارة أن ينفقوا فى الملعب ساعات حلوة لا يشكون فيها مللا ولا سأماً ، ولا يفكرون أثناءها فى أنفسهم ولا فيما قضوا يومهم فيه من خير أو شر ، ولكنه يضمن لهم إذا خرجوا من الملعب ، أن يخرجوا منه كما دخلوه لا محزونين ولا مكتئبين ولا محتاجين إلى أن يفكروا فيما رأوا أو سمعوا .

قلت لك هذا أوشيئاً يشبهه فى العام الماضى . فلما عرفت أنى سأتحدث إليك عن الكاتب نفسه فى هذا الأسبوع خيّل إلى أن سيكون الأمر هيناً ، لأنك تعرف الكاتب . فلم يبق لى إلا أن ألخص قصته ، ثم أخذت فى قراءة القصة فتغير رأيى فجأة تغيراً يوشك أن يكون تاماً ؛ لأنى رأيت الكاتب نفسه قد تغير : لا يهمل الحركة واضطراب

الممثلين ، ولكنى رأيته يؤثر عليها الفكرة و يريد أن يتصل فى هذه المرة بعواطف النفس ودخائلها . ثم مضيت فى قراءة القصة فتم اقتناعى بأن الكاتب قد تغير مذهبه ، ولكنه لم يتغير تغيراً تاماً ؛ فهو محتفظ بحبه للحركة و إسرافه فيها ، ولكنه قد أضاف إلى حبه للحركة هذا شيئاً آخر جديداً . و إذاً ففنه يتطور ولكن فى بطء . وأكاد أثق بأن القصص التى سيقدمها لنا فى الفصل المقبل ستكون أقل حظاً فى الحركة والاضطراب ، وأنه سينتهى إلى العدول عن هذا الفن الشاب المسرف فى النشاط إلى فن آخر هادىء رزين فيه تذكير وفيه نفع وفيه عناية بالعقل والشعور .

والحق أنى لم أبرأ من الأسف حين فرغت من قراءة هذه القصة . فأنت تعرف رأيى ، وتعلم أنى أوثر من قصص التمثيل ما يجد العقل والشعور فيها معاً لذة ورضاً ، وأكره من هذه القصص ما يتصل بالحس وحده و يكاد لا يقصد إلا إلى العبث و إنفاق الوقت . وكنت أقدر بعد أن قرأت الفصل الأول والثانى أنى بإزاء قصة رأى وتفكير ، وكنت معجباً بموضوع القصة و بهذه الفكرة التى أراد الكاتب أن يستغلها ، وكنت أريد ألا يشغلنى الكاتب بحركته واضطرابه عن هذه الفكرة وعن أطوارها وعن آثارها ونتائجها ، فلم أظفر من ذلك إلا ببعض ما كنت أريد . ولقد أجد النقاد يذكرون صلة بين هذا الكاتب و بين كاتب آخر حدثتك عنه فى العام الماضى غير مرة ، وهو : «هنرى باتاى»

ور بما كان بين الكاتبين شيء من الشبه غير قليل ، ولكن من الخير أن نحدد هذا الشبه إن كان إلى تحديده سبيل ؛ فنلاحظ قبل كل شيء أن الكاتب الذى نحن بإزائه اليوم يشبه « هنرى باتاى » من حيث إنه يعبث بالنظارة و يستأثر بحسهم و يلهيهم كما يريد دون أن يتيح لهم من الوقت ما يمكنهم من الأناة والتفكير وكشف القناع عن حيله وألاعيبه الفنية . هو مسرع يعدو فيعدو وراءه النظارة حتى تكاد تنقطع أنفاسهم . وهو بارع فى هذا العدو ، يلهى نظارته فلا يحسون ألماً ولا تعباً ، و يصرفهم عن أنفسهم إلى فنه . ولكن الفرق عظيم جداً بينه و بين « هنرى باتاى » ، فلم يكن هنرى باتاى عابثاً لاعباً ليس غير ، و إنما كان شيئاً آخر . وسواء أرضيت الأخلاق والفلسفة عن تمثيل هنرى باتاى أم سخطت عليه فقد كانت قصصه كلها أو أكثرها تجارب علمية نفسية . ذلك أنه لم يكن يعبث بالحس وحده ، و إنما كان يعبث بالعواطف والشعور أيضاً . ولم يكن يريد أن يلهو ولا أن يلهى ليس غير ، و إنما كان يريد شيئاً آخر . كان يريد أن يثير الحس والعاطفة ما استطاع ليعرف أقصى ما يمكن أن ينتهيا إليه . ومن هنا لا تستطيع أن تخرج من الملعب هادئاً مطمئناً كما دخلته ، و إنما أنت متأثر شديد التأثر بما رأيت وسمعت . ينقضى الليل ور بما انقضى اليوم أو الأيام دون أن ينقضى هذا التأثر . ذلك شيء تجده فى « هنرى باتاى » ولكنك لن تجده فى كاتبنا هذا . و إذاً فليس الشبه بينه و بين صاحبه قوياً

ولا عميقاً ، و إنما هو شبه عرضى إن صح هذا التعبير .

وقد يكون من الخير أن أبدأ فى تلخيص هذه القصة ، ولكنى ألفتك قبل كل شىء إلى أن هذا التلخيص سيكون موجزاً ، لأنى لن أتابع الكاتب فى حركته واضطرابه ، فقد تكون متابعة الكاتب فيها لذيذة فى الملعب دون التلخيص .

* * *

نحن فى ضواحى مدينة چنيف ، فى فندق هناك من فنادق الترف ، وقد أقبل المساء أو كاد ، وأخذ الناس يجلسون فى طُنُف الفندق يتناولون الشاى وما إليه مما يتناول فى المساء . ونحن نرى فى ناحية من هذا الطنف رجلين قد جلسا إلى مائدة يتحدثان ، ونرى قريباً منهما رجلاً وامرأة يهمسان وكأن أمراً يعنيهما . فلنعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً . أما أحد الرجلين فهو « موريس برونو » شاب ، ضخم الثروة ، عظيم النشاط ، يعمل عامه كله فى غير راحة ولا هدوء ، حتى يجهده العمل فيفر من باريس إلى حيث يستريح أسابيع . وهو شديد الحياء يضطرب لأقل شىء ، قليل التجربة . ولعل هذا هو مصدر حيائه واضطرابه . وأما صاحبه فهو « لوثار » صديق له من هؤلاء الناس الذين تظهر عليهم آثار النعمة و يسيرون فى الحياة سيرة المترفين ، ولكنهم فى حقيقة الأمر فقراء لا يستمدون نعمتهم أو ترفهم من ثروة يرثونها أو يكسبونها ، و إنما هم عيال على أصدقائهم الأغنياء ، يعتمدون عليهم و يعيشون منهم . وهم

لا يريدون أن يؤمنوا بهذا ولا أن يظهروه ، و إنما هم يخفونه حتى على أنفسهم ، بل يخفونه حتى على أصدقائهم هؤلاء ؛ فهم يأخذون من أصدقائهم ما يحتاجون إليه لا على أنه هبة أو عطاء ، بل على أنه قرض . وهم يقترضون فى تمنّع و إباء وفى عزة تكاد تكون طبيعية ، حتى إن الذين لا يعرفونهم يجهلون من أمرهم كل شىء .

وأما المرأة فهى « إيرين دى برج » ، لم تبلغ الثلاثين بعدُ . رائعة الجمال كأكثر نساء القصص . كل شىء فيها حلو خلاب : صورتها ، حركاتها ، ألفاظها ، زيها ، مذهبها فى الحوار أو الكلام ، هى فتنة تتحرك . نشأت من أسرة متوسطة ، من أبوين يؤثران المنفعة على كل شىء . وقد أتيح لا بنتهما خطب شريف ضخم الثروة ، فقبلاه ودفعا إليه الفتاة دفعاً دون أن يحفلا بعواطفها وهوى نفسها . وكان هوى نفسها هذا مع شاب آخر كان صديق صباها ، فأحبها وأحبته ، وخطبها وقبلته . ولكن أبويها رفضا ؛ لأن هذا الشاب لم يكن نبيلا ولاغنياً بحيث يلائم جمال ابنتهما من جهة ومطامعهما من جهة أخرى . وهذا الشاب هو « روبير جوردان » وهو محام قد عظم أمره و بعد صوته فى محاكم الجنايات ، وهو الذى يتحدث إلى هذه المرأة الآن . قد افترقا أعواماً ثم التقيا ، فإذا حبهما على عهده القديم لم يتغير ، و إن كانت المرأة تظهر لزوجها عطفا ومودة وتضمر له وفاء و براً . هى لاتحب زوجها وهى تعلم أن زوجها لا يحبها ، بل تعلم أنه يخونها و يسرف فى خيانتها ،

ويبدل من الأخدان والخليلات كما يبدل ثيابه ، ولكنها مع ذلك وفية أمينة لأنها تكبر نفسها عن الخيانة ، وتضن بجسمها أن يكون متعة لرجلين ، وتأبى عليها كرامتها أن تختلس لذتها وسعادتها اختلاساً . هذا شأنها .

أما صاحبها فما زال يحبها ، ولكن هذا الحب لم يكلفه رهبانية ولا نسكا ، فهو يستمتع بالحياة ويتخذ الأخدان والخليلات لينصرف إليهن عن همه وعن حزنه ، ولكنه الآن قد لقيها فامتلأت بها نفسه وانصرف أو كاد ينصرف عن خليلة له كان قد أطال عشرتها . فلندع هذين العاشقين فى حديثهما ، ولنعد إلى الرجلين اللذين تركناهما آنفا لنرى فيم يتحدثان . يتحدثان فى شىء طبيعى جداً ، وهو أن الشاب رأى هذه المرأة فوقعت من نفسه ، فهو يذكرها ، ويلح فى ذكرها وتفصيل جمالها ، ويسأل عن مكانتها الاجتماعية ، وصاحبه يؤيد له أنها فتاة من هؤلاء الفتيات اللاتى يختلفن إلى الفنادق والأندية يلتمسن الأخِلاَّء ، وقد رأى كلف صاحبه بها ، فهو يهوِّن عليه الأمر ويعلن إليه أنه سيقدِّمه إليها . وهما فى هذا الحديث وإذا المرأة وحدها ، لأن صاحبها قد تركها كأنه مغضب ، فينهض الرجل إليها فيحييها كما تحيا الفتيات اللائى لا كرامة لهن ، ويعرض عليها صاحبه الشاب ، ويذكر لها ثروته وأخلاقه ومكانته ، كل ذلك فى غير حيطة ولا تحفظ . والمرأة تسمع هذا كله ضاحكة مغرقة فى الضحك ، ثم تقبل أن يقدم إليها

الشاب . فإذا قدِّم إليها ازدادت ضحكا و إغراقاً فى الضحك ، واضطرب الشاب اضطراباً شديداً ، فلم يزدها اضطرابه إلا ضحكا . وهم فى هذا الضحك ، و إذا جماعة قد أقبلوا عليهم فيهم زوج المرأة ، فتقدِّم المرأة زوجها إلى هذين الرجلين اللذين أدركهما خجل شديد ، ثم تعلن إليهم أنها رأت هذين الرجلين فى باريس وتحدثت إليهما ، ولكنهما نسياها ، أما هى فلم تنسهما . ولست أحدثك عن خجل هذين الرجلين وما تبعه من حركات مضحكة ، فقد لا يتسع هذا الفصل لمثل هذه الأشياء التى تلذ فى الملعب دون التلخيص كما قلت . بل لست أحدثك عن حركات هؤلاء الناس جميعاً ، فهم فى اضطراب متصل يتنقلون من مكان إلى مكان ، ويدخلون إلى الفندق ويخرجون منه . وأنا أنتهز فرصة خلت فيها المرأة إلى صديقها روبير فهما يتحدثان بما قدّمت لك من حب . وهو يلح عليها فى أن تسمح له ، وهى تأبى عليه إباء شديداً ، ثم تقسم له أنها لن تكون لغيره . فإذا استوضحها أنبأته بأنها إذا برئت ذمتها من زوجها فلن تتزوج إلا إياه . والفتى ساخط على هذا الوعد الذى لا يقدِّم ولا يؤخِّر ؛ فقد ذكر لها الطلاق فرفضته رفضاً شديداً ؛ لأن أبويها يكرهان الطلاق ، وذكر لها الخيانة فرفضتها رفضاً شديداً لأنها تزدرى الخيانة . و إذاً فلم يبق إلا أن ينتظرا قضاء الله ، وما أسرع ما يتم هذا القضاء ! .

أقبل القوم جميعاً وأخذوا فى أحاديثهم المتصلة المختلفة ، و إذا زوج

« إيرين » يطلب إلى صديقها روبير أن يعيره سيارته ليهبط المدينة لأن له فيها حاجة معجلة . ونفهم نحن من الحوار بين الرجلين أن الزوج إنما يهبط المدينة ليلقى خليلة له ، وهو إنما يستعير سيارة صاحبه ليترك سيارته لامرأته إن أرادت أن تخرج ، وهو شديد الحرص على أن يكون وحده ، ولكن روبير يأبى إلا أن يرافقه لأنه وحده يحسن قيادة سيارته ، وقد اتفقا آخر الأمر على أن يهبطا المدينة معاً ، ولم يبق عندنا ولا عند إيرين وصديقها شك فى أن الزوج ذاهب إلى موعد منكر . وقد خرج الرجلان و بقيت الجماعة فى أحاديثها المتصلة ، وأخذت فى ألوان من اللعب لإنفاق الوقت ، ومضت على ذلك لحظات ، و إذا خادم من الفندق قد أقبل فدعا أحد الرجال وخلا إليه ، وأقبل هذا الرجل فدعا الآخرين بعضهم إلى بعض وأخذوا يتحدثون ، والنساء لاهيات عنهم باللعب ، و « إيرين » خاصة منصرفة عنهم انصرافاً تاماً ، لأنها معصوبة العينين تتلمس رفيقاتها بيديها وتريد أن تدل عليهن دون أن تراهن . ولكن حديث الرجال قد طال ووصلت أطراف منه إلى النساء ، فالتفتن ثم أقبلن ، ثم ظهر الأمر منكراً وأزيل الغطاء عن « إيرين » فما كادت ترى وتسمع حتى أغمى عليها ؛ ذلك أن زوجها قد خرج فى السيارة مع صاحبه ، حتى إذا كانا فى بعض الطريق نزل صاحبه من السيارة ليتحدث إلى رجل ، فانتهز الزوج هذه الفرصة وطار بالسيارة ، لأنه يريد أن يكون وحيداً فى موعده ، وأخذ

صاحبه يعدو وراءه يستوقفه ولكنه أسرف فى السرعة ، وإذا هو أمام هوة لم يحسن اتقاءها فتردى فيها وهو الآن يحمل إلى الفندق .

كان هذا كله فى چنيف وقد مضت عليه سنة أو أكثر من سنة ، ونحن الآن فى مدينة « كان » فى جنوب فرنسا ، فى قصر فخم لأحد الذين حضروا ما قدَّمت فى الفصل الأول واسمه « دى بوشان » وقد دعا هذا الرجل أصدقاءه ليقيموا عنده أياماً وفيهم « إيرين » وصاحبها روبير ، وفيهم « موريس برونو » وصاحبه « لوثار » . ونحن نرى صاحب القصر يتحدث إلى امرأته وابنته وهم ينتظرون أصحابهم ليذهبوا إلى اللعب . وقد فهمنا من حديثهم أن الرجل وامرأته يريدان أن يزوجا ابنتهما من موريس ، وهما يلحان عليها فى أن تترضاه وأن تتحبب إليه ، وهى تفعل ما تستطيع ، ولكن الفتى منصرف عنها إلى هـذه الأرملة «إيرين» ، والفتى يعلم أن هذه الأرملة لا تحبه ، وإنما تحب «روبير» ، وهو يعلم أنها قبلت خِطْبَته وأنهـا ستقترن به بعد أشهر ، ولكنه مع ذلك يحبها ويصرفه حبه عن هذه الفتاة . وقد أقبل القوم جميعاً وهموا بالذهاب إلى الملعب ، ولكن روبير قد تعلل بأنه مصدوع ، وأنه يؤثر منظر البحر وجمال الطبيعة على اللعب ، فسيبقى إذاً ، وإذاً فستبقى « إيرين » حتى لا تتركه وحده ! ولم لا ! أليسا خطبين ! أليس من حقهما أن يخلوا إلى جمال البحر والطبيعة فى ضوء القمر ، وأن يذكرا حبهما . وهما الآن وحدهما ، وهما يذكران حبهما وآمالهما . ولكن شيئاً

جديداً قد طرأ ؛ ذلك أن « روبير » قد تغير تغيراً غريباً ، فهو يحب صاحبته ، ولكنه يتقيها ويكاد يفر منها ، وهو شديد الاضطراب ولا سيما إذا تحدث إليها . وهى تحس هـذا كله ، ولكنها لا تفهمه . وانظر إليهما الآن يتحدثان فى الحب حتى يغريهما الحديث بالقبل فيضمها إليه ، وإذا هى قد لانت له وضعفت ، ولكنه ينصرف عنها فى نفور وتحرج . فإذا غاظها ذلك ذكر لها أنه لا يريد أن يتزوج خليعة ، وإنما يريد أن تظل صلاتهما عفيفة طاهرة إلى يوم الزواج . ولكن هذا لا يرضيها ، ولها الحق ، فقد كان هذا الرجل يغريها بالخيانة قبل أن يموت زوجها ، ولم يكن يحفل يومئذ بالعفة ولا بالطهارة ، فما الذى غيَّر منه الآن ؟ أبلغت به الأثَرة أنه كان يريدها لنفسه حين لم يكن له عليها حق ، فأما الآن فهو يأخذها باحترام العادات والأخلاق والأوضاع الاجتماعية ؟ ! هى مغضبة ، مغضبة لهذه الخواطر التى ذكرتها ، ومغضبة أيضاً لأنها تحس فى نفسها بل فى جسمها شيئاً من الخيبة . طمعت فى اللذة والسعادة وأشرفت عليهما ، وهى الآن تُردُّ عنهما ردًّا . ولكن صاحبها أشد بؤساً مما تظن ؛ فليس يصرفه عنها احترام الأخلاق والأوضاع ، وليست الأثرة هى التى تصده عن اللذة ، ولكن بين العاشقين حائلا منكراً يعلمه هو وتجهله هى ، وهو يجتهد فى إخفائه عليها ، ولكن الظروف أرادت أن يظهر فى هذه الليلة . هما متغاضبان وقد ذكرت أن لديها رسائل قد وصلت إليها ، فهى تريد أن تقرأ هذه

الرسائل ، وهى تنظر فيها و إذا واحدة منها قد ملأتها اضطراباً وذعراً ، فهى تريد أن تتحدث إلى صاحبها فى أمر هذه الرسالة ، ولكنها تتردد وقد ظهر اضطرابها ، وصاحبها يسألها : ما شأنها ؟ فتخفى عليه ، ولكنها تنتهى إلى أن تسأله : « كيف قتل زوجها ؟ » وهى تلح عليه فى أن يقص عليها الأمر مفصلا ، فيمتنع و يظهر عليه الاضطراب ، ثم يقص عليها الأمر ، و إذا هومتناقض يكذّب نفسه غيرمرة ، وهى تحصى عليه هذا التناقض وتلفته إليه ، فلا يزداد إلا اضطراباً وتناقضاً . ونحن نحس أنها تريد أن تبرئه ، وتحس أنه برىء . ولكنا نحس أنه لا يحسن الدفاع عن نفسه ، وأنه ينكر من نفسه شيئاً لا يريد أن يبوح به . ولكن طارئاً يقطع عليهما الحديث حيناً ، وهو « موريس » ، فقد انصرف من الملعب لأنه أحس صُداعاً . وما أحس صداعاً و إنما أحس حباً وغيرة ، وهو يود لو جلس إلى العاشقين ، ولكنهما يظهران صدوداً عنه ، فيصعد إلى غرفته كارهاً . و يستأنف العاشقان حديثهما ، فإذا هى تتهمه وهو يقسم أنه برىء ، ولكنه لا يحسن الدفاع عن نفسه ، و إذا هى تقرأ علينا هذه الرسالة التى ملأتها اضطراباً وذعراً ، وهى رسالة غُفْلٌ ليس من شك فى أن خليلة صاحبها هى التى كتبتها لتفسد هذا الزواج . وفى هذه الرسالة اتهام لصاحبها بالقتل ، وقد اشتد الأمر بين العاشقين وكاد العاشق يعترف بكل شىء ، ولكنه أمسك ثم فر ، و إذا صاحبته تصيح مستغيثة تدعو « موريس » فيقبل ، و إذا هى قد أغمى عليها .

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى مدينة « بيارتز » فى أحد فنادقها الكبرى ، وقد مضت أشهر على ما قدّمت لك ، ونحن نرى « لوثار » قد أقبل ، ونفهم أن صديقه « موريس » قد وصل إلى الفندق أمس ومعه زوجه « إيرين » ؛ ذلك أن « إيرين » حينما استغاثت بموريس أقبل إليها وما زال بها حتى رد إليها رشدها فدعته إلى أن يحميها وطلبت إليه أن يتزوجها وأن يسرع فى الزواج فتزوجا . وهما الآن يطوفان فى الأرض ، وقد أقبلا إلى « بيارتز » بعد أن زارا بلادا مختلفة وجاء « لوثار » للقائهما ، وهو لا يلبث أن يلقى صاحبه وأن يتحدثا . فنفهم من حديثهما أنه ليس سعيداً لأن امرأته ليست سعيدة ، وهو لا يشك فى أنها وفية أمينة تجتهد فى أن تحبه وتخلص له ، ولكن شيئاً يصرفها عن هذا ، وهى تخفيه عليه ، وقد أقسمت له أنها لم تُسْمِحْ لخطيبها الأول ولم تخن زوجها الأول ، ولكنها مع ذلك تخفى عليه شيئا ، ويجب أن يكون هذا الشىء أليما فقد أنحلها وأضناها حتى أصبحت حياتها معرضة للخطر . وهو يحبها ، ويريد أن ينقذها من هذا الخطر ، ويبذل فى ذلك ما يستطيع . وهذه « إيرين » قد أقبلت وهى شاحبة نحيفة محزونة يريد « لوثار » أن يضحكها فلا يصل إلى شىء ، وقد أقبلت صديقتها تعرض عليها أن تذهب معها إلى حيث الشاى والرقص ، فتظهر الرضا ، ولكن هذه الصديقة غابت عنها حيناً ثم تعود ، وإذا هى منصرفة عن الشاى منصرفة عن الرقص ، تعرض

على صاحبتها البقاء حيث هما ، ثم تسرّ إلى « لوثار » أنها رأت فى قاعة الشاى «روبير» ، وتريد أن يعلم ذلك «موريس» ، ولكن موريس قد ذهب لبعض شأنه ، وإذا «روبير» قد دخل ، فرأته « إيرين » فاضطربت اضطراباً شديداً وأخذها دوار يشبه الإغماء ، ودعى زوجها فأقبل ، وما يزال بها حتى يرد إليها قوتها وقد عرف كل شىء ؛ فهو يلح على امرأته فى أن تنبئه بجلية الأمر ، فإذا أبت عليه اتهمها وأنذرها بأن يلقى روبير ويسأله وهو مستعد للمبارزة . هنا تكذب « إيرين » وتتهم نفسها بأنها قد كانت خليلة «لروبير» ، وتلح على زوجها فى أن يتجنب هذا للقاء وفى أن يترك مدينة « بيارتز » . ولكن زوجها يأبى ، وقد تركته ليستريح ، فلا يكاد يخلو إلى نفسه حتى يرى غلاما يسرع إلى غرفة امرأته ، وكان يخفى كتابا ، فيعرض له ويأخذ منه الكتاب قهراً ، فاذا الكتاب موجه إلى امرأته ، وهو لا يريد أن يقرأ هذا الكتاب ولكنه يريد أن يعلم ما فيه . وقد أقبل «روبير» ، فتحدث الرجلان وأذن له روبير فى قراءة الكتاب ، فاذا هو كتاب برىء لا إثم فيه وإنما هو تحية واعتذار . وقد أخذ الرجلان يختصمان ، وأخذ العنف يشتد بينهما ؛ لأن أحدهما يحب ويغار والآخر يحب ويحقد . ولكن « إيرين » قد أقبلت ، فما تزال بالرجلين حتى يهدآ ، وقد أعلن زوجها إلى صاحبه أنه يعرف ما كان بينهما من صلة ، فيقسم الرجل ببطلان هذه التهمة ، وتعترف « إيرين » بأنها كذبت على نفسها

لأنها لم ترد أن تفشى سر صاحبها ، فهى مقتنعة بأن صاحبها قد قتل زوجها ، وهنا يظهر سر القصة . فالرجل لم يقتل زوج « إيرين » ولكنه تركه يموت . رآه وقد تردى فى الهوة وسمعه يصيح و يستغيث وكان يستطيع أن ينقذه لو أراد ، ولكنه تمثل « إيرين » حرة بعد موت هذا الرجل ، وتمثل قسمها له وتمثل اقترانه بها . كل ذلك فى لحظة قصيرة جدا ، فأبطأ عن الرجل حتى سقط ومات . واذن فهو لم يقتله ولكنه تركه يقتل . وهو يحس فى نفسه منذ ذلك اليوم عذاباً شديداً ، وهو يرى نفسه آثما مجرما ، وهو لهذا كان لا يستطيع أن يدنو من « إيرين » ولا أن يجد السعادة فى اقترانه بها لأنه كان يتمثل دائما هذا القتيل بينهما . وهو قد انصرف عن محاكم الجنايات لأنه لا يستطيع أن يدافع عن المجرمين وهو مجرم ، وهو قد انصرف عن العمل كله لأنه مفرّق النفس بين الحب واللوم ، وهو قد أقبل يرى صاحبته للمرة الأخيرة ، وهو يتمنى السعادة للزوجين و يسألهما الرثاء له . أما هى فممعنة فى الانتحاب ، وأما زوجها فيصافح هـذا الشقى البائس قبل أن ينصرف ، وهو يسأل امرأته و يريد منها الجواب فى صراحة و إخلاص: ماذا كنت تصنعين لو أنه اعترف لك بهذا كله قبل زواجنا ، أكنت تتزوجينه ؟ فتجيب : نعم ! لأنه لم يقتل ولأنى أحبه .

* * *

فإذا كان الفصل الرابع — وكنت أود ألا يكون — فنحن فى ضاحية من ضواحى باريس ، فى قصر فخم يسكنه «موريس» وامرأته ، وقد انصرفا عن مائدة الغداء ومعهما « لوثار » وصديقة لهما وهم يتحدثون وقد فهمنا من حديثهم أن « إيرين » ما زالت محزونة كئيبة ، وأن «موريس» ما زال محتملا جاداً فى العناية بها ، وأن تتمنى أن ترزق ولداً يصرفها عن حزنها وأساها . ولكن لنتعجل فقد انصرف القوم جميعاً و بقيت «إيرين» وحدها ، فتجلس إلى البيانو وتعبث بأصابعها ، و إذا الخادم قد أقبلت تنبئها بأن زائراً يريد أن يراها ، فتمتنع لأنها عرفت من هو ، ثم تأذن ، فيدخل « روبير» ، و إذا رجل سىء الحال جدّا لا نكاد نراه حتى نصدق ما سمعنا من أنه قد انصرف إلى اللهو ، فهو يقضى الليل فى الحانات ، وهو يدمن على الخمر « والكوكايين » وقد أقبل اليوم يعلن إلى صاحبته أنه سيترك فرنسا إلى مكان بعيد يجد فيه عملاً مثمراً ومسلياً . وهو يعلم أنها تحبه ، وأنها لا تحب زوجها الثانى كما أنها لم تحب زوجها الأول . وهو يعرض عليها السعادة ، ولكنه يريد أن تكون حرة ، يعرض عليها أن تسافر معه ، ويذكرها حبهما وقسمها ، وأنه و إن يكن أساء فقد احتمل من الألم والندم ما يكفر عن سيئته . وقد أثر فيها تأثيراً قوياً ، وقد كاد يغلبها على أمرها ، ولكنه يريد أن تكون حرة فيما تعتزم ، فسينصرف وسينتظر فى الشارع دون النافذة . فإذا فكرت وقررت أن تلحق به فلتتخذ معطفها وقلنسوتها

ولتهبط إليه ، و إذا اعتزمت أن تبقى ولا تراه فلتضم الأستار إلى النافذة ، فسيرى هو هذا وسينصرف إلى حيث لا تراه . قال هذا ومضى وتركها مضطربة أشد اضطراب . ولكن زوجها قد أقبل ؛ ذلك لأنه بينما كان خارجاً من القصر رأى «رو بير» يدخله فانتظر حتى انصرف «رو بير» وأقبل إلى امرأته ، وهو يحدثها فى صراحة وكرم وطيب نفس ، يعرض عليها حريتها . هو يعلم أنها تحب «رو بير» وأنها لم تنصرف عن حبه قط ، وأنها لن تسعد إلا معه ، وهو يحبها ولكن لنفسها لا لنفسه ، وأى أية على الحب وصدقه أقوى من أن تضحى بنفسك وسعادتك فى سبيل من تحب ؟ ! تستطيع إذن أن تذهب مع «رو بير» ، فقد سمع الناس يتحدثون بأنه مسافر إلى مكان بعيد ، ولا ينبغى أن تتردد ولا أن تشفق ، فسعادته الصحيحة فى أن يجعلها سعيدة ، وسيرفع أمر الطلاق إلى المحكمة ويحتمل هو آثام الطلاق ، وسيصدر الحكم لها لا عليها . هو يقول هذا كله مخلصاً ، وهى تسمع هذا كله باكية منتحبة ، ولكنها لن تفعل من هذا شيئاً . أليست هى التى أبت أن تخون زوجها الأول فكيف تخون زوجها الثانى ! ! هو يريد أن يضحى بنفسه فى سبيلها فلم تكون هى من الأثرة بحيث تقبل هذه التضحية ! ! هى لا تحب زوجها حب شهوة ولذة ، ولكن لم لا تحب زوجها حب صداقة وشكر للصنيع ! ! و بعد فلو أنها أرادت أن تلحق بصاحبها لما استطاعت ؛ ذلك لأنها تحس فى أعماقها شيئاً كانت تتمناه لتسلو به عن الحزن والألم ، وكان

يخيل إليها أنها لن تظفر به ، ولكنها الآن تحسه فكأنه قد أقبل ليصرفها عن الإثم والجور ، وليقر العدل فى نصابه . هى تحس أنها حامل ، وهى تعلن ذلك إلى زوجها ، وهو يضمها إليه و يقبلها سعيداً مغتبطاً وقد أفلتت من بين ذراعيه وأسرعت إلى النافذة فى ذهول فضمت أستارها ، ولكنها سمعت شيئاً صعقت له فيقبل زوجها عليها و يعنى بها حتى تفيق بعض الشىء وتنهض فتجلس إلى البيانو وتعبث بأصابعها لتخدع زوجها عن مرضها وحزنها ، أصابعها مضطربة على البيانو و بصرها حائر وفكرها مشرّد والباب قد فتح والخادم تدعو سيدها وجلة فيسرع إليها فتنبئه بأن رجلا قتل نفسه بالباب . . .

يناير سنة ١٩٢٥

الغربان

قصة تمثيلية بقلم الكاتب الفرنسى « هنرى بيك »

ليس هذا العنوان مشوقاً ولا خلاباً ، وربما كان منفراً ثقيلا على السمع . ومع ذلك فلست أعرف عنوان قصة تمثيلية أشدّ من هذه القصة صدقاً وأكثر منها تأثيراً فى النفس ، وأبرع منهـا فى تصوير لون من ألوان الحياة القاتمة المحزنة التى نراها ، فلا يحسن ظننا بالإنسان ولا فيما انتهى إليه من حضارة ورقى .

نعم ! نحن بإزاء قصة جيدة ، وأنا أصفها بهذا الوصف من غير تحفظ ولا احتياط ، لأنها خليقة به حقاً . هى جيدة من كل وجه : جيدة فى موضوعها لأنه من هذه الموضوعات التى نشهدها فى كل يوم وفى كل مكان على اختلاف ظروف الحياة وأجيال الناس ، نشهده فننكره أشد الإنكار ونحزن له أعمق الحزن ، ونسخط عليه أشد السخط ، حتى لقد أصبح ذلك شيئاً شائعاً مستقراً عنيت به الديانات ومذاهب الأخلاق . وأى الناس يجهل سخط الديانات والأخلاق وعرف أخيار الناس على هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى و ينعمون بشقاء البائسين، ويستغلون

ضعف الضعيف ليتخذوا منه لأنفسهم قوة وبأساً . القصة جيدة فى معناها وأسلوبها أيضا . فأنا زعيم لك إن قرأتها ألا تجد فيها إسرافاً ولا قصوراً ، ولا تجاوزاً لحدود الفن ، ولا نبواً عن السهولة والسذاجة اللذين يلائمان طبع الطبقات الوسطى من الناس . أنا زعيم لك بأنك ستقرؤها فلا تجد فيها عنفاً ولا شدة ، ولا عناية قليلة أو كثيرة بالتأثير فى نفسك والاستثارة لعواطفك ومع ذلك ستثور لأن القصة طبيعية بريئة من التكلف . ولست أعرف شيئاً أبلغ فى إثارة العاطفة والتأثير فى النفس من الطبيعة الصادقة يمثلها الكاتب أو الشاعر تمثيلاً صادقاً . والقصة جيدة فى لفظها ، فقد تقرؤها على طولها دون أن تجد فيها لفظاً غريباً ، بل دون أن تحس فيها أن الكاتب قد تخير ألفاظه أو تأنق فيها ، وإنما هو كلام يجرى مجرى الطبع ويسير مسير الأحاديث العادية بين أوساط الناس ، دون أن يكون فيه مع ذلك فساد أو ضعف أو اضطراب .

القصة كلها طبيعية ، وهى طبيعية من أى نحو قصدت إليها . ومن هنا قلت — وما زلت أقول — إنك لن تستطيع أن تقاومها ولا أن تعصم نفسك من التأثر لها . وأحسب أنك لن تستطيع أن تقرأ الفصل الثالث والرابع منها محتفظاً بهدوئك وسكونك ودموعك . نعم ! أعترف بأنى من أشد الناس مقاومة لبراعة الكتاب والشعراء والممثلين . وهذه المقاومة نفسها هى التى تمكننى من النقد وتيسر علىّ الحكم إذا قرأت

قصة أو شهدتها . ولكنى على شدة مقاومتى هذه احتجت أمس إلى أن آخذ نفسى بشىء من العنف ، وأنا أقرأ هذه القصة لأحتفظ بهذه الابتسامة التى تعودت أن أسمع معها كل أثر فنى . ولست أريد أن أطيل فى المقدمات ، فلأَهْجُمْ بك على القصة نفسها ، وأنا واثق كل الثقة بأنى لن أستطيع أن أُؤثر فى نفسك تأثير القصة نفسها ، لأنى لن أوفق مهما أبذل من جهد لأن أكون فى هذا التلخيص من السذاجة والسهولة بحيث كان الكاتب نفسه حين وضع قصته .

ما أجدر هذه القصة أن تقرأ ! وما أجدرها أن تترجم ! وما أجدرها أن تعرض على الناس فى ملاعب التمثيل العربى ! . فكأن الكاتب لم يضعها لفرنسا ، وإنما وضعها لمصر . ولم لا نكون صادقين فنقول إنه وضعها للعالم كله ! وأى بلد يخلو من أولئك الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً فيأكلون فى بطونهم ناراً ويستعدون لأن يصلوا يوم القيامة سعيراً .

* * *

نحن فى باريس ، فى بيت تظهر عليه آثار النعمة . قد رفع الستار ، فإذا نحن نرى أُسرة مجتمعة ، لا نكاد نراها ونسمع لها حتى نشعر بأنها أسرة سعيدة مغتبطة ، قد ألف الحب بين قلوبها فاطمأنت إلى يومها وابتسمت لغدها . نرى شيخا قد استلقى يستريح بعد الغداء وفى يده صحيفة ينظر فيها والنوم يغالبه ، وهذا الشيخ هو « فينرون » زعيم

الأسرة . ونرى امرأة ليست بالشابة ، ولكنها ليست بالشيخة أيضاً . ونرى فتاة قد جلست إلى البيانو ، وهى « جوديت » أكبر شباب هذه الأسرة ، وفتاة أخرى قد جلست قريباً من أبيها إلى بعض هذه الأعمال اليدوية التى يعنى بها النساء ، وهى «مارى» الثانية من شباب هذه الأسرة . ونرى فتاة ثالثة لما تبلغ العشرين ، قد جلست إلى مائدة تكتب ، وهى « بلانش » الثالثة من شباب هذه الأسرة . ونسمع ذكر غلام سنراه بعد حين يسمى « جاستون » وهو آخر أبناء هذه الأسرة . أنظر إلى الفتاة مبتسمة تكتب . وليس يشك من رآها فى أنها معنية بأمر ذى بال ، وكيف لا ! أليست تكتب أسماء الذين سيتناولون العشاء على مائدة أبيها مساء هذا اليوم وتعنى بترتيبهم فى مجالسهم ملاحظة فى هذا الترتيب أقدارهم وأعمارهم ! ثم أليست بطلة هذا العشاء ، فهو إنما يقدم إلى الناس احتفالا بخطبتها وتمهيداً لقرانها وقد نهضت أمها فأخذت تناقشها فى أماكنهم ، وتذكر كل واحد منهم ثم تعقب بحكم له أو عليه . وقد أفاق الشيخ من غفوته ، فسمع ابنته تذكر ساخطة اسم أحد المدعوين أسماء المدعوين ، وهو « تسيبه » ، فأظهر غضباً ولوما ، وأنذر ابنته بأنها إن عادت إلى مثل هذا فسيحرمها حضور المائدة وسيلغى زواجها . ذلك أن هذا الرجل الذى تكرهه هذه الفتاة هو مصدر نعمته وشريكه فى عمله ، فيجب إكباره والوفاء له . والأسرة مختلفة دائماً فى هذا الموضوع اختلافاً شديداً ، فأما الشاب

فيكره هذا الرجل كرها عنيفاً لأنه ثقيل النفس بغيض غليظ الحديث بخيل شديد الاثرة . وأما الشيخ فلا ينظر إلى شيء من هذا كله ، وإنما ينظر إلى أن هذا كان مصدر ثروته ، وما هو فيه من نعيم . وأما الأم فتتوسط بين الشيخ والشاب ، ولهذا يتخذها الشيخ حكماً كلما اختلف مع بناته فى أمر هذا الرجل . يتخذها حكماً فى كل يوم ؛ لأن هذا الخلاف يتجدد فى كل يوم . وهى تعيد فى كل يوم صيغة بعينها يحبها الشيخ ، فهو يستعيدها ، ويضحك منها الشاب ، فهو يستعيدها أيضاً ، وهذه الصيغة تختصر تاريخ الأسرة التى كانت فقيرة معدمة ، ولكنها شريفة عاملة ، حتى لقى هذا الرجل الغنى زعيمها ، فطلب إليه أن يدير معملاً له ، فقبل ، ووفق فى عمله ، فأصبح شريك رئيسه ، وأخذ يكوِّن لنفسه ولولده ثروة لابأس بها . وإذن فهو مدين لشريكه بالثروة ، ولكن شريكه مدين له بالنجح . وإذن فليس لأحد منهما على صاحبه فضل .

كل هذا يعرض عليك تاريخ هـذه الأسرة وما بين أعضائها من حب وألفة ، وما تستقبل به الحياة من سعادة قوية وأمل مبتسم ، ولا سيما بعـد ما لقيت من ضيق وعناء . ولكن شيئين آخرين يجب أن تعلمهما : الأول أن هذا الشيخ مريض تظهر عليه آثار علة خفية ، وهو يجاهد هذه العلة ويريد أن يمضى فى عمله وفى تكوين ثروة ضخمة لبنيه فهو لا يكتفى بنصيبه من المعمل وإنما يشترى أرضاً ويقيم عليها دوراً ،

وكل هذا العمل يجهده ويضنيه . وأهله قلقون مشفقون . واسمع إلى ثانية بناته تلومه فى رفق ولطف ، لأنه لا يعنى بصحته فلا يستريح ، ولا يعرض نفسه على الطبيب .

الثانى أن صغرى هؤلاء الفتيات قد خطبت وتمت خطبتها ، وهى سعيدة ، وأمها راضية ، ولكن الشيخ غير مطمئن لهذه الخِطْبة ولا مبتهج بهذا الزواج . هو لا يميل إلى صهره الشاب ، ولا إلى أمه الأرملة الفقيرة ، ولكنه لا يستطيع أن يعلل هذا النفور . وهو الآن يريد أن ينصرف إلى عمله ، ولكنه يحب بناته ، ويحب زوجه ، ويحب حياة الأسرة هذه ، فهو يتردد فى الخروج ، ويدعو ابنته إلى أن توقع له لحناً على البيانو فتفعل . وقد دخل الغلام ، فإذا الشيخ يلقاه بهذه اللهجة التى امتاز بها الآباء الفرنسيون ، لهجة التعنيف يملؤه العطف والحنان ، وإذا الرجل يمازح ابنه ويداعبه فى حرية ورضاً ، وإذا هو يضع فى جيبه النقود وإن كره الغلام ، وإذا هو يبيح له أن يلهو كما يشاء على أن يكون شديد الاحتشام إذا دخل البيت حتى لا يظهر أخواته من سيرته على شىء ، وإذا هو يعرض نفسه على ابنه ليكون مشيره وناصحه فيما يعترض لهوه من الصِّعاب ، وإذا هو بعد ذلك قد استحال إلى الحب فهو يعلن إلى ابنه أن أمد هذا اللهو سيكون قصيراً ، وأنه سيستعين به فى أعماله الكثيرة . وانظر إلى هذا الشيخ قد جمع بنيه وامرأته فقبّلهن جميعاً ثم مضى لعمله ، وأخذت الأم تأمر بناته أن يتهيأن

للعشاء ، ويتخذن زينتهن لاستقبال المدعوين فخرجن ، ولكنها تدعو صغرى بناتها فتزجرها فى لطف وتنذرها فى حنان لأنها تسرف بعض الإسراف فى مداعبة خطيبها ، وتتجاوز حدود اللياقة ، وأمها لا تسمح بهذا ولا ترضاه . ولا تكاد تخلو هذه الأم إلى نفسها حتى يستأذن عليها الخادم لزائرة فتأذن ، وتدخل هذه الزائرة وهى « مدام دى سان جنيس » أم الخطيب ، قد أقبلت ولما يأت ميعاد العشاء ، وهى تعتذر ثم تأخذ فى الحديث ، فما أسرع ما نفهم نفسيتها ، وما أسرع ما نُبْغِضها ونسخط عليها ، وما أسرع ما يزداد حبنا لهذه الأسرة الطاهرة الوادعة البريئة . لا تكاد هذه الزائرة تتحدث حتى نشعر بأنها امرأة مادية غالية فى الطمع لا تتردد فى الطرق التى توصلها إلى الثروة . قد عرفت الناسَ فساء ظنها بهم واشتد ازدراؤها لهم ، فهى تستغل نقائصهم لا أكثر ولا أقل . اِسْمَعْ إليها تلوم صاحبة البيت لوماً شديداً لأنها لا تتقرب من شريك زوجها ولا تتلطف له ، مع أن هذا الشريك متقدم فى السن ضخم الثروة لا وارث له . أليس من الخير أن يُتَمَلَّقُ ويُخْدَعَ لعله يوصى بثروته كلها ، أو بعضها لهذه الأسرة ؟ أما صاحبة البيت فتظهر نفوراً شديداً من هذا الطمع والخداع ، ثم تقول لزائرتها إنها لا تستطيع أن تسلك مثل هذه الطرق ، ومع ذلك فأنت حرة فى سلوكها بعد زواج ابنينا ! لعل هذا الشيخ يختص الأسرة الجديدة بعطفه ومودته وميراثه .

وقد دخل الخادم فاستأذن لمعلم الموسيقى ، فيدخل وتنصرف المرأتان وتأتى كبرى الفتيات ، فلا تكاد تتحدث إلى أستاذها حتى نعلم أنها موسيقية لها حظ من البراعة ، فهى تضع الألحان الموسيقية ، وقد وضعت لحناً تودع به أختها العروس ، وحتى نحس أن أستاذها يعجب بها ويتملقها وكأنه يريد أن يداعبها . ولكن صاحبة البيت وزائرتها وسائر أعضاء الأسرة قد أقبلوا ، وأخذ المدعوون يقبلون واحداً فواحداً حتى اكتمل عددهم ، وهم يتحدثون فى لهو ولعب وبهجة ، ولكن الخادم قد دخل وهو يهمس فى أذن سيدته ، ثم يتبعه رجل آخر فدخل وطلب إلى السيدة أن تنحى بناتها فتفعل ، وإذا هذا الرجل هو الطبيب قد أقبل يعلن إليها أن زوجها أصابته السكتة فمات وهذه جثته تحمل . .

* * *

فاذا كان الفصل الثانى فنحن فى البيت نفسه ، وقد مضى شهر أو نحو شهر على هذا الحادث ، وكل شىء فى هذا البيت يدل على الحزن والأسى . ونحن نرى صاحبة البيت لا تستطيع أن تكف دموعها ، وهى تتحدث إلى زائرتها « مدام دى سان جنيس » فتشكو وتلح فى البكاء ، وهذه الزائرة تتكلف تعزيتها وتسليتها تكلفاً ، فهى لم تأت لهذا ، وإنما أقبلت لشىء آخر . أقبلت لتعرف الحال المادية لهذه الأسرة بعد أن فقدت زعيمها ، وهى تنصح لصاحبة البيت أن لا تثق بشريك زوجها ولا بمحاميه ولا بمهندسه . فترتاع المرأة لهذا كله ، ولا تفهم

مصدراً لهذه النصيحة الغريبة ، ذلك أنها امرأة طيبة القلب شريفة ، ترى أن الناس جميعاً مثلها أخيار أطهار . ولكن زائرتها لا تذهب هذا المذهب ولا ترى هذا الرأى . وهى تلح عليها فى أن تكون سيئة الظن بالناس جميعاً ، وتذكر لها أنها إنما تلح عليها فى هذا مخلصة ناصحة ، فهى امرأة ، ومن الحق عليها أن تعين امرأة مثلها . وهى لا تلتمس نفعاً من هذا النصح ، فقد يظهر أن زواج ابنيهما لن يتم . ذلك لأن هذا الزواج كان مشروطاً بشروط مالية لم يصبح تحقيقها يسيراً ، وهى لا تستطيع أن تعرض مستقبل ابنها للخطر والضيق . فلا ترى صاحبة البيت جوابا إلا أن تقول لها : كما تحبين وقد خرجت هذه الزائرة ، ودخل «تسييه» شريك زوجها ، فاذا هى تلقاه بمثل ما لقيت به زائرتها الأولى من الجزع والبكاء ، ثم يتحدثان فى أمر الميراث . وهنا يظهر بعض ما خبأت الأيام من البؤس لهذه الأسرة التى كانت سعيدة مغتبطة . كانت هذه الأسرة تقدر أنها غنية حسنة الثروة ، ولم يخطر لها بعد أن مات زعيمها أنها ستلقى عنتاً أو شدة . ولكن هذه المرأة لا تكاد تتحدث إلى شريك زوجها حتى تسمع نكراً من الأمر ، وحتى تقدر شراً كثيراً : أليس هذا الرجل ينبئها بأن ميراث زوجها ليس شيئاً يذكر ، وبأنه ترك ديوناً تكاد تستغرق الثروة ، وبأنه مضطر إلى بيع المعمل ، وبأنه ينصح لها أن تبيع الأرض ، وبأن صفوة ما سيبقى لهذه الأسرة من الثروة لا يكاد يبلغ خمسين ألف فرنك ! سمعت المرأة هذا فصعقت له وأصابها

شيء من الوجوم أخرجها عن طورها ، فاذا هى تنهر الرجل وتتركه مزدرية ساخطة ، والرجل مغضب ولـكنه شرير ، فهو يتحدث إلى نفسه ، بما نفهم منه أنه قد دبر العبث بهؤلاء اليتامى واغتيـال هذه الثروة ، وقد تم الاتفاق على ذلك بينه و بين المحامى ، ولـكنه لا يخلو إلى نفسه طو يلا ، فقد جاءت « مارى » وهى الفتاة الثانية من فتيات هذه الأسرة ، وأخذت تهدئه وترضاه وتعتذر عن أمها وتتوسل إليه ألا يأخذ هذه المرأة الحزينة بما يضطرها إليه حزنها من الضجر وضيق الصدر . وقد وجدت هذه الفتاة سبيلا إلى قلب هذا الوحش ، فهو يرق لهـا و يظهر الميل إليها ، وقد استطاعت أن تظفر منه بالعفو عن أمها ، وأن تبعثه إلى حيث هى ليزول ماينهما من خلاف فيجيبها إلى ذلك ، وقد اشتد إعجابه بها وميله إليها و ينصرف إلى أمها . ولا تـكاد الفتاة تخلو إلى نفسها حتى تدخل عليها أختها الصغرى ، فتتحدثان ، و إذا جزعهما عظيم ، ولـكن الصغرى لا تخلو من عزاء ، فهى تفـكر فى زواجها ، وهى تنتظر هذا الزواج ، فإذا عرضت أختها بأن هذا الزواج قد يكون عسيراً أظهرت الفتاة إيماناً بالمستقبل وثقة بخطيبها ، ثم أظهرت حرصها على هذا الزواج فى ألفاظ لا تفهمها أختها لأنها بريئة طاهرة ؛ أما نحن فقد فهمناها حق الفهم ، وعرفنا أن هذين الخطيبين قد تجاوزا الحدود فى صلتهما ، وأن الزواج قد أصبح أمراً محتوماً . وقد أقبل المحامى ثم أقبلت الأم وشريك زوجها ، وأخذ الرجلان يقنعان المرأة

بوجوب بيع المعمل و بيع الأرض أيضاً . والمرأة تقاوم وتمانع ، ولكن الرجلين أقوى منها حجة وأشد منها مهارة ، وهما يمثلان لها ميراث زوجها عبئاً مثقلا بالديون . ودخل المهندس فأراد أن يدافع عن المرأة وعرض طريقة تضمن لها الثروة . ولكن الرجلين حاوراه حتى كان بينهم خصام عنيف ، وأنصرفوا جميعاً وقد تركوا المرأة و بناتها يضطربن بين يأس منكر وتردد شديد .

فإذا خلا النسوة إلى أنفسهن تشاورن فى الأمر ، ولكنهن ضعاف لا يفقهن تدبير الثروة ولا يعرفن مواجهة الصعاب ، وهن مختلفات يقلبن الأمر ظهراً لبطن . و إذا الخادم يحمل إليهن كتباً يقرأنها ، فإذا كلها تطالب بديون ، و إذا هن واجمات ينظر بعضهن إلى بعض دون أن يستطعن الكلام . . . . .

✡ ✡ ✡

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى البيت نفسه وقد مضت أسابيع على مامر فى الفصل الماضى، ونحن نرى أم الخطيب تتحدث إلى الخادم، فنفهم من حديثهما أنها أقبلت لترى خطيبة ابنها ولكنها ستنصرف لأن هؤلاء السيدات لسن وحدهن و إنما يتغدى معهن « تسييه » فإذا انصرفت وأقبل السيدات وأقبل معهن الرجل وتحدثوا عرفنا أن الصلات حسنة بين هذا الرجل وهؤلاء النسوة وأنه يكثر التردد عليهن دون أن تتقدم أمور الميراث ، فهو فى الوقت نفسه يميل إلى الفتاة

ولـكنه يريد أن يغتال التركة : هو رجل عملى يريد أن يظفر بالمال واللذة فى غير مشقة ولا خسارة وهن محتاجات إلى المال وقد أثقل الدائنون عليهن و بالغوا فى الإلحاح وهن لا يجرؤن أن يطلبن إلى هذا الرجل معونة أو قرضاً وهن يشعرن بأن هذا الرجل يجب إحداهن فيكلفن هذه الفتاة أن تطلب إليه هذا القرض فتفعل بعد جهد و يقبل الرجل طلبها هذا متبرماً به كارهاً له و ينصرف ليأتى بهذا المقدار من المال فالنساء فرحات مطمئنات ، ولـكن المحامى قد أقبل وهو يحمل أنباء سيئة ويلح فى بيع الأرض لأن الدائنين الراهنين يلحون فى استيفاء ديونهم ويريدون الاستيلاء على رهونهم . ومهما تحاول الأم فلن تجد مخرجاً من هذا الضيق إلا التسليم ، والمحامى يذكرها بفقرها وحاجتها إلى المال ، فإذا ذكرت له أنها قد اقترضت من شريكها لامها وأنبأها أنه يستطيع أن يقرضها ما تشاء حتى تتم تصفية الميراث إذا كانت قروضها معتدلة . وقد عاد « تسييه » بالمال وخلا إلى الفتاة فدفعه إليها وأخذ يداعبها مداعبة الشيخ البخيل الحريص والفتاة جاهلة . فلما فهمت ، أخذت تدافعه عن نفسها و إذا هو يعرض عليها صفقة منكرة و إذا الفتاة مغضبة أبية ترد إليه ماله وتطرده طرداً عنيفاً . ولـكن فى هذا الفصل موقفاً هو من أشد مواقف القصة تأثيراً وهو هـذا الموقف بين الخطيبة وأم خطيبها . كانت هذه الخطيبة مؤمنة بصاحبها واثقة به معتمدة عليه وكانت تعلم أن أمه تمانع فى هذا الزواج

ولا تشك فى أن الفتى سينتصر على أمه . وقد أقبلت هذه الأم وإذا هى تنصح للفتاة أن تعدل عن هذا الزواج وتحذرها الفقر والفاقة وماينشأ عنهما من سوء العشرة بين الزوجين ، والفتاة تذكر حبها وتعتز به وتذكر الثقة بخطيبها وتلح فيها حتى يشتد الخصام بينهما فإذا الفتاة عنيفة مرة ، رقيقة مرة أخرى تجثو وتبكى ثم تنذر وتوعد ، ثم يأخذها الغضب فتعلن إلى المرأة ما كان بينها وبين الفتى ولكن المرأة لا ترق ولا تلين وإنما تنبئها بأن ابنها قد انصرف عن حبه وأذعن لأمه وتنصرف وقد تركت الفتاة فى ذهول ما أسرع ما استحال إلى جنون وأهلها يحطن بها يردن أن يحملنها إلى السرير .

* * *

فإذا كان الفصل الرابع فقد تم كل شىء ، وظفر الشريك والمحامى بما كانا يريدان من اغتيال ثروة هؤلاء اليتامى ، واضطرت هذه الأرملة وبناتها إلى أن يتركن بيتهن الفخم ويأوين إلى بيت متواضع عليه مظاهر البؤس والفقر ، وقد اتصل الغلام بالجيش ، وجنت الخطيبة جنوناً متقطعاً ، وأخذت المرأة تعيش مع ابنتيها الرشيدتين عيشة ضيق لا بد من أن تنتهى إلى الإعدام . وكبرى بناتها تلتمس عملا لتكسب منه حياتها وحياة أمها وأختها ، تريد أن تعطى دروساً فى الموسيقى ، فلا تلبث أن تعلم أن هذا مستحيل لأنها إن كانت شريفة أكبرها الناس دون أن يستأجروها ، وإن كانت لعوباً استأجرها الناس ولم

يكبروها . تريد أن تتصل بملعب من ملاعب الموسيقى ، فيظهر لها أن هذا مستحيل إلا أن تنزل عن عفتها وكرامتها . وهى حائرة محزونة ، تتحدث إلى أختها « مارى » ، وليست أختها أقل حيرة ولا حزناً منها ، فهى أيضاً تريد أن تعمل ، وقد التمست ألواناً من العمل فلم توفق لشىء إلا أن تعرض عفتها وكرامتها للخطر . . .

ما أشق الحياة على المرأة الوحيدة ؟ ! على أن فى الجو شيئاً يدعو إلى الأمل ، ولكنه ثقيل بغيض لا يطاق : هذا الشريك الذى ما زال بهؤلاء اليتامى حتى ابتز ثروتهن واضطرهن الى هذه الحياة المنكرة ، هذا الشريك كلف بالفتاة يريد أن يتخذها له زوجاً . ألم يظهر حبه لها وإعجابه بها فى غير موقف ؟ ولكنه شيخ وهو دميم ، وهو ثقيل بغيض إلى النفس ، والفتاة لا تكرهه بل تعافه ، فماذا تصنع ؟ أترفض هـذا الزواج ؟ وإذاً فهو الفقر والإعدام وما يتبعهما من ألم . وما تصنع بأمها ؟ أتكلفها العمل لتعيش ؟ وماذا تصنع بأختها المريضة وقد تزوج خطيبها ؟ أتضيف إلى حزنها ومرضها ألم الجوع ، أم تقبل هذا الزواج ، وإذاً فهى الحياة المنكرة مع رجل تعافه ! وإذاً فهو ألم المرأة التى تبيع نفسها لتعيش ! وإذاً فهو ألم المرأة النبيلة الفقيرة حين تسمع الناس يتحدثون بأنها إنما اقترنت بهذا الشيخ طمعاً فى ثروته . . الفتاة تضطرب بين هذه الخواطر ! ولكن انظر إلى هذه الأسرة كلها قد اجتمعت إلى مائدة حقيرة تتناول طعاماً غليظاً فى صمت وخشوع وإذعان للقضاء . ماذا تصنع الفتاة ؟

أتقبل هذا الزواج فترفه على هؤلاء النسوة التعسات ، أم ترفضه فتعرض نفسها وأهلها لذلة الفقر وما يتبعها ؟

دخل المحامى وهو يلح على الفتاة أن تقبل ، وهو يرغبها ، وهو يكشف لها أستار المستقبل عن النعيم إن قبلت وعن الجحيم إن أبت ، وهو يذكر أمها الشيخة ، وأختها المريضة ، والأم تأبى وتلح على الفتاة أن ترفض . ولكن المحامى قد ذكر التضحية ، وذكر أن أباها الشيخ قد مات لتنعم أسرته ، أليس فى هذه الأسرة من يألم لتسعد هذه الأسرة ؟ بلى ! إن فيها هذه الفتاة فهى تقبل الزواج . وانظر إلى هذا الشيخ الدميم البخيل الهرم قد أقبل فرحًا يقبل فريسته كما كان إلـه الفينيقيين يلتهم ضحاياه البريئة والفتاة مبتسمة مذعنة !

أليس من الحق أن هذا الرجل وأمثاله هم الغربان يتبعون الموتى فلا يدعون من آثارهم شيئا صالحا إلا أتوا عليه ! . . . .

يناير سنة ١٩٢٥

صوت

قصة تمثيلية بقلم الكاتب الأميركى ادوارد شلدون

نقلها إلى الفرنسية الكاتبان المعروفان

« روبير دى فلير وفرانسيس دى كرواسيه »

ينبغى أن تفهم هذا العنوان كما تفهمه حين تجده فى كتاب الأغانى ، فهو يدل على مقطوعة من الشعر يغنى بها ، وكذلك أراد صاحب هذه القصة التى أريد أن أحدثك عنها فى شىء من الإيجاز كثير . فأنا — كما قلت فى غير هذا الموضع — حين أنحو هذا النحو من تلخيص القصص التمثيلى أو غير التمثيلى لا أريد أن أغنى القارىء العربى عن الأصل الأوربى ، إنما أريد أن أرغبه فيه وأحبب إليه قراءته ودرسه . فهذه الفصول المتواضعة ترغيب فى قراءة تلك القصص الممتعة لا أكثر ولا أقل

وقصتنا هذه ممتعة فى موضوعها ، ممتعة فى شكلها ، ممتعة فى لغتها ، وممتعة بنوع خاص لأنها تمثل التئام الذوقين الأميركى والفرنسى التئاماً بديعاً .

وضع لها صاحبها هذا العنوان لأنها تبتدىء بصوت من الغناء وتنتهى بهذا الصوت ، ولأن هذا الصوت نفسه رشيق عذب فيه سذاجة ورقة ، ولأنك لا تكاد تمضى فى قراءة هذه القصة حتى تجد فيها هذه العذوبة وهذه الرشاقة وهذه السذاجة ملتئمة أحسن الالتئام مع حقائق الحياة الواقعة وما فيها من خشونة وغلظة وتعقيد .

وإن أعجب لشىء فإنما أعجب لأن هذه القصة لم توقع بعد على ألحان الموسيقية كما أوقعت من قبل قصص تشبهها كل الشبه .

على أنى لا أريد أن أطيل فى المقدمات ولا أن أسرف فى التحليل ، وإنما أسرع بك الى القصة نفسها ، وأعتمد على الترجمة أحيانا لأدلك على ما فيها من جمال وروعة .

* * *

نحن فى مدينة نيويورك فى مكتب الأسقف البروتستانتى « توم ارمسترونج » وهو شيخ فى السبعين من عمره ، قد جلس الى النار يصطليها أول الليل ، وحفيدته تقرأ له إحدى الصحف . ونحن نحس أنها تقرأ له هذه الصحيفة فى شىء من السأم والضجر لأنها تؤثر أن تتحدث إليه أو تلهو معه بشىء آخر . وآية ذلك أنها لا تكاد تمضى فى القراءة حتى تقف سائلة جدها الأسقف : أليس يؤثر على هذا الكلام صوتا من أصوات الفنوغراف ثم تدع الصحيفة وتعمد إلى الفنوغراف فتنطقه بالصوت المعروف :

« أتعرف ذلك البلد الذى يزهر فيه البرتقال ... ! » : فما هى إلا أن يظهر الشيخ شيئاً من الضيق و يطلب إلى حفيدته فى رفق أن تدع هذا الصوت الى صوت آخر ، فإذا سألته الفتاة عن مصدر هذا الضيق أبى عليها ، وأحسسنا نحن أنه لا يكره هذا الصوت ولكنه يشفق من استماعه.

والفتاة لم تدع الصحيفة إلى الفنوغراف إلا لتدع الفنوغراف أيضاً إلى الحديث ، فهى تريد أن تتحدث إلى جدها فى أمر ذى بال ، تريد أن تتحدث إلى الشيخ فى أمر أخيها الشاب « هنرى » فقد أحب هذا الشاب فتاة ممثلة جميلة رائعة الطلعة يتيمة فقيرة سيئة الحظ ، وهو يريد أن يتزوجها ، وهو يريد أن يتحدث فى هذا الزواج إلى جده ، ولكنه كلف أخته أن تعد الشيخ لهذا الحديث ، وقد فعلت . وأقبل الفتى وانصرفت الفتاة وخلا الشاب إلى جده وذكر له قصته وأسرف له فى الثناء على هذه الفتاة وأعلن إليه أنه يريد أن يتخذها له زوجاً . فيأبى عليه الشيخ فى رفق معلناً إليه أنه حَدَثٌ قليل التجربة ، وأن الخير فى أن يروّى و يفكر حتى إذا كانت السنة المقبلة رأى فى ذلك رأيه . وليست السنة المقبلة بعيدة فستبدأ بعد ساعات لأننا فى اليوم الأخير من شهر ديسمبر . ولكن إباء الشيخ يشق على الفتى و يؤلمه فيقول لجده : لو عاش أبواى الشابان لاستطاعا أن يفهما عاطفة الحب . و يقدراها فقد تقدمت بك السن حتى نسيت شبابك وعجزت عن فهم عواطف الشباب.

تقع هذه الكلمات فى نفس الشيخ موقعاً مؤلماً ، فيدعو الفتى إلى

البقاء وكان قد همّ بالانصراف ، و يأمره أن يحمل إليه صندوقاً صغيراً على مائدة فى ناحية من نواحى الحجرة ، فإذا حمل إليه هذا الصندوق فتحه وأخرج منه منديلاً وزهرات من البنفسج قد أتى عليها الدهر فأصبحت هشيما ، و بدأ يقص على حفيده قصة هذا المنديل وهذه الزهرات ليثبت له أنه على شيخوخته وتقدم السن به لم ينس شبابه ، ولم ينس أنه أحب وألم للحب . وهنا يتحول المسرح وتستخفى الحجرة والشيخ والفتى وتمثل أمامك القصة التى بدأ الشيخ يقصها على الشاب .

✲ ✲ ✲

فأما الفصل الأول من هـذه القصة فيقع فى قصر رجل من أغنياء الأميركيين حين كان الأسقف فى الخامسة والعشرين من عمره . وقد أقام هذا الرجل الغنى فى قصره حفلاً دعا إليه وجوه المدينة وأغنياءها وذوى المكانة فيها ليسمعوا عنده مغنية إيطالية ذائعة الصيت قد اتخذها الموسيقيان الشهيران « روسينى » و « فردى » ترجماناً لما يضعان من الموسيقى . وهى رائعة فاتنة قد شغف بها من أغنياء أوربا وأمرائها خلق كثير . وانتهى الأمر بها إلى هذا الغنى الأميركى الذى يتصل بأسرة فرنسية هاجرت إلى أميركا فى أخر القرن الثامن عشر . أحبها هذا الغنى وكلف بها كلفا شديدا فدعاها الى نيويورك وقدمها إلى وجوه المدينة وعشاق الفن الموسيقى فيها . ونحن نرى قصر هذا الغنى مزدحما بمن فيه من الشباب والكهول والشيوخ رجالا ونساء ، ونحن نرى ونسمع من عبث الأميركيين وحوارهم ما يلذ و يضحك وما لا سبيل الى أن نلم به

فى هذا الفصل . ولكنى أقف بك عند رجل من الأغنياء قد دعى إلى هذا المحفل فأقبل ، و إنه لشديد السخط على القصر وصاحبه ومن فيه ، هو رجل قد أكل الحقد قلبه ، فهو لا يرضى عن شىء ولا عن أحد وهو ضخم الثروة ولكنه شديد البخل مسرف فى الحرص عظيم الشره يريد أن يستمتع بكل ما يجد دون أن يعترف بشىء من الاستمتاع . ضاق صدره بالمدعوين ففر منهم إلى إحدى غرف القصر وأمر الخادم أن يحمل إليه طعامه وشرابه ، فإذا دخل الغرفة نظر فإذا علبة فيها سيجار فيلقى على هذه العلبة نظرة إحتقار وازدراء ثم لا يلبث أن يتحقق أن ما فيها جيد النوع ، فيأخذ واحداً ، ثم لا يكفيه ما أخذ فيأخذ طائفة أخرى من السيجار ويدسها فى جيبه و يأتى الخادم وقد حمل إليه من الطعام والشراب ما استطاع فيلقى إلى ماحمل إليه نظرة إزدراء و إحتقار ثم ينتهر الخادم لأنه لم يحمل إليه إلا قليلا و يجلس كارها إلى طعامه ولكنه لا يكاد يذوقه حتى يستجيده فيسرف فى الأكل والشرب ، و إنه لفى ذلك إذ يدخل عليه القسيس الشاب « توم أرمسترونج » وهو ، كما قدمت ، فى الخامسة والعشرين من عمره ، جميل الطلعة ، واضح الأسارير ، ممتلىء نشاطاً وقوة ، قد عرف بالإخلاص فى خدمة الدين ، وبالعناية فى خدمة الفقراء والبائسين ، خفيف الظل حلو الروح يحبه صاحب القصر ويرجو أن يزوجه من إحدى قريباته . يدخل هذا القسيس على صاحبنا وهو منهمك فى طعامه وشرابه فلا يكاد يراه

حتى ينصرف عما هو فيه من طعام إلى صاحب القصر فينال منه فى لفظ منكر قبيح ، و يعيب عليه هذه المغنية التى دعا الناس لاستماعها فى قصره لأنها خليلته ، ولأنها معروفة بسوء السيرة ، و يلوم القسيس لأنه يرضى عن هذه الآثام و يقصر فى تأدية واجبه الدينى فلا يكف صاحب القصر عن هذه الفضيحة ، فيسمع له القسيس حتى إذا فرغ من كلامه قال له هذه الجملة التى تعطيك منه صورة واضحة : لمن هذا الطعام الذى تزدرده ولمن هذا الشراب الذى تعب فيه عبًّا ؟ ولمن هذا السيجار الذى تدسه فى جيبك ؟ أليس هذا كله لصاحب القصر ؟ يجيبه الغنى : بلى . وأنت ترى أن واجب القسيس هو أن يأمر الناس بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يأخذهم بترك ما يتورطون فيه من شر . يجيبه الآخر : نعم ! و إذن فلأبدأ بك ، فقد أتيت نكراً لا يعدله نكر حين اغتبت صاحب هذا القصر على هـذا النحو القبيح وأنت فى قصره تأكل من طعامه وتشرب من شرابه ! . وهما فى هذا الحوار إذ يأتى « دى روشار » صاحب القصر ، فينصرف هذا الغنى . ولا يكاد القسيس يخلو إلى صاحب القصر حتى يبدأ فى تأدية واجبـه الدينى من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ولكنه يجد فى هذا مشقة ، فهو يكبر صاحب القصر و يجله ، وهو مدين له بمركزه فى الكنيسة . على أن هـذه المشقة لا تصرفه عن أداء هذا الواجب فهو يلوم صاحب القصر على ما بينه و بين هذه المغنية من صلة وصاحب القصر يجيبه معتذراً إليه فى شىء من الرفق والفلسفة والشك

فى معنى الخير والشر وقيمة الفضيلة والرذيلة ، و يعلن إليه أنه يرى السعادة الحقيقية فى حب الخير والجمال والشباب . وهما فى هذا الحوار و إذا المغنية قد فرغت من غنائها وأقبلت يتبعها المعجبون بها ، فينصرف القسيس وتخلو هذه المغنية إلى صاحبها ، ليكون بينهما حوار نفهم منه أن وعظ القسيس قد أثر فى نفس هذا الرجل من حيث لم يشعر . انظر إليه يتحدث إلى صاحبته بأنه فى الحادية والخمسين من عمره وأن أسباب اللهو والنعيم قد تقطعت به . وأن الخير إنما هو فى أن يستحيل حبهما إلى مودة بريئة ، وهى تستمع له راضية حيناً وساخطة حيناً آخر ، غاضبة مرة ، مداعبة مرة أخرى ، مزدرية لما يقول ، حريصة على أن يعدل عنه ، ولكنها على كل حال قد رأت القسيس وهو ينصرف فوقع من نفسها ، وهى تعلن إلى صاحبها فى صراحة أنها تكره البروتستانتية من الموسيقى والبخور والاعتراف ، ولكنها تحب البروتستانتية لأن قسسها حسان . وما زالت بصاحبها حتى أقنعته بأنه لم يبلغ الخمسين من عمره وأنه ما زال يستمتع ببقية من شباب وحتى ضربت معه موعداً للنزهة إذا كانت الساعة الرابعة من مساء غد . ثم تطلب إليه أن يدعها لتستريح قبل استئناف الغناء وأن يرسل إليها شيئاً من الخمر والليمون .

فلا تكاد تخلو إلى نفسها حتى يمر القسيس فتتناوم وتدع رداءها يسقط عنها ؟ وقد نظر إليها القسيس وحدق فيها وكأنها وقعت فى نفسه ،

فيدنو منها فى خفة ويعيد إليها الرداء وينصرف ، ولكنه لا يكاد يتجاوز الغرفة حتى يسمع صوتها وهى تشكره . وما هو إلا أن يسمع هذا الصوت حتى يضطرب ولا يدرى أيمضى أم يقف ، فتستوقفه وتستدنيه ويجيبها إلى ما تريد فى شىء من الاضطراب والذهول . ويأخذان فى الحديث ، وإذا هى تخفى على القسيس نفسها وتأخذ فى اغتياب المغنية فيلومها القسيس ويطلب اليها أن تستغفر الله من هذا الإثم فتأبى فيغضب ويهم أن ينصرف . ولكن الخادم قد أقبل يحمل الشراب ، فتطلب إليه أن يصب لها فى القدح فيفعل ، ثم تطلب اليه أن يصب فى قدح آخر فيفعل ، ثم تدفع إليه أحد القدحين فلا يستطيع أن يرده ، ثم تأمره أن يحدق فيها وتعلن إليه أنها ستحدق فيه وتقترح أن يشربا قدحيهما على هذا النحو . فإذا فرغا من الشرب رأيناهما وقد فتن كل منهما بصاحبه فتنة قوية . فأما هى فتستغفر الله من إثمها حين اغتابت المغنية ، وأما هو فيطلب اليها موعداً لأنه يريد أن يراها وأن يتحدث إليها بأشياء كثيرة ما كانت لتخطر له من قبل . وهما فى هذا الحوار إذ يقبل صاحب القصر فيراهما على هذه الحال : وهى كالنائمة وهو جاث بين يديها يناجيها . وأنت تستطيع أن تقدر دهش صاحب القصر حين يرى مكان القسيس من المغنية وهو الذى كان يلومه فيها منذ حين . تنهض المغنية لتستأنف الغناء ولكن القسيس يلح عليها فى الموعد غير حافل بمكان صاحب القصر ، فتضرب له الموعد من الساعة الرابعة من مساء غد ، فإذا

ذكرها صاحب القصر بأنها قد ضربت له الموعد فى هذه الساعة نفسها أجابته : أما موعدك فمؤجل . وتنصرف وقد سقط من يدها منديل فيهوى اليه القسيس فيأخذه

☆☆☆

فإذا كان الفصل الثانى فنحن فى بيت القسيس ، فى حجرة عمله ، نرى عمتيه قد جلستا تتنازعان إحداهما فى الثامنة والخمسين ، والأخرى فى الستين، وكلتاهما قد وقفت حياتها على القسيس لا تدرى ماذا تصنع لترضيه وتعنى بطعامه وشرابه ولباسه ، والخصومة بينهما فى ذلك متصلة مضحكة ، ولكنهما رغم هذه الخصومة متفقتان فى الألم لأن الشاب قد تغيرت حياته تغيراً شديداً منذ ثلاثة أسابيع ، فهو شديد الكلف بهذه المغنية الإيطالية يقضى معها شطراً من كل يوم حتى نسى خطيبته وحتى أخذ الناس يتحدثون عن كلفه بهذه الفتاة، وهما تصليان وتضرعان إلى الله أن يصرف عن القسيس هذا المكروه ، وهما تستعينان بـ « دى روشار » صديقهما وصديق القسيس وعم خطيبته ، وهما تنتظران عودة الشاب بعد حين ، ولكنهما لا تعرفان من الذى أرسل هذه الطاقة من الزهر دون أن يرسل اسمه معها ، ولا تفهمان لم لا يريد الشاب أن يأخذ الشاى معهما ، ولا تعرفان هـذا الشخص الذى سيتناول الشاى مع القسيس .

وقد أقبل صديقهما دى روشار . قصتا عليه القصة وألحتا عليه فى

أن يحاول صرف الشاب عن هذه المغنية الأجنبية ، فيعدهما و ينبئهما بأن الأمر يعنيه كما يعنيهما ، لأنه يحب القسيس كما تحبانه ، و يعلن إليهما أيضاً أنه سينتظر الشاب ليتحدث إليه ، فتنصرفان عنه . ولا يكاد يخلو إلى نفسه حتى تقبل المغنية فيلقاها دهشاً ؟ أما هى فيصيبها شىء من الذهول ، ثم يتحدثان فتفهم من حديثهما أن الحب قد اتصل قوياً عنيفاً بينها و بين الشاب ، و إن هذا الحب على قوته وعنفه طاهر برىء يقوم على أكذوبة أو على طائفة من الأكاذيب ، فإن الفتاة لم تستطع أن تنبىء صاحبها بحقيقة أمرها ولا بما تشتمل عليه حياتها من الآثام ، و إنما تركته يصورها كما أراد له خياله وحبه نقية طاهرة مثالاً للفضيلة والبراءة والطهر . وهى تستعذب هذا الحب الأفلاطونى ، ولا تريد أن تكذب ظن الشاب ، ولم تكذب ظنه وستعود إلى أوربا بعد خمسة عشر يوماً فتنقطع بينهما الأسباب ، وتكون قد سعدت فى حياتها بحلم لذيذ . ولكن دى روشار يلفتها إلى أن الأمر أشد خطراً مما تظن ، فالشاب يحبها حقاً وسيطلب إليها أن تكون زوجة وليس إلى ذلك من سبيل ، وهو يقترح عليها أن تسافر من الغد وأن تنصرف الآن دون أن تراه ، وهى مستعدة للانصراف ، ولكن القسيس قد أقبل وما يكاد يراها وتراه حتى ينسيا كل شىء و ينصرف كل منهما إلى صاحبه ، و يضطر دى روشار إلى أن يدعهما حيناً . وهنا موقف بين العاشقين شديد التأثير حقاً ، فيه لين ودعة وعذوبة ، وفيه حب يبلغ به العنف أقصاه ،

ولكنه سعيد كله غبطة وأمل ، ثم فيه أمل تتفطر له القلوب وتتفرق له النفوس شعاعاً . أنظر إليه راضياً مغتبطاً شديد الابتهاج بزيارتها أياه ، أنظر إليه فى وداعة الطفل يظهرها على ما فى غرفته من متاع ، أنظر إليه يظهرها على صورة أمه التى ماتت شابة ، واسمع له يتحدث عن أمه : يصفها بالجمال وعذوبة الخلق ورضا النفس ، واسمع له يذكر أمه وما كانت تشعر به لو أنها رأت صاحبته ، ثم أنظر إليه يهدى إلى صاحبته عقد أمه وهى تأخذ هذا العقد وتطوق به جيدها ، ثم اسمع لهما يغنيان معاً صوتاً كانت أمه تغنيه ، ثم انظر إليهما وقد نسيا كل شىء وفنى كل منهما فى صاحبه وقد أقبل إليها فضمها بين ذراعيه لحظة ثم أطلقها وهو يطلب إليها أن تكون له زوجاً . هنا تعود الفتاة إلى نفسها وتذكر حياتها الآثمة و يحس منها هذا ، ولكنه قسيس وهو يحب ، فما أسرع ما ينتهى به حبه ودينه ومركزه الدينى أيضاً إلى العفو ، فهو ينسى ماضيها بل يمحوه وهو يلح عليها فى أن تكون له زوجاً وهو يعلن إليها مبتهجا أنه سيدعو عمتيه ودى روشار لينبئهما النبأ .

فلا تكاد تسمع اسم دى روشار حتى تضطرب ويريبه هذا الاضطراب . والعجب أنه نسى كل ماضيها وعفا عن آثامها جميعاً ؛ ولكنه شديد الحرص على أن يعلم أنه لم يكن بينها و بين هذا الرجل شىء ، هو يلح عليها وهى تتردد حتى إذا أشفقت عليه من الحق كذبت وزعمت له أنه لم يكن بينها و بين هذا الرجل شىء ، فيستحلفها على

التوراة فتهم باقسام اليمين ، ولكن دى روشار قد أقبل ، فينبئه القسيس بحبه وخطبته ، ولكنه لا يرى منه ابتهاجا فيريبه ذلك ، وأنظر إليه قد اندفع به الحب والريب حتى انتهى به إلى ذهول يشبه الجنون ؛ فهو ماثل أمام هذا الرجل وهذه المرأة يستحلفهما على التوراة أن لم يكن بينهما شيء . فأما الرجل فقد رق له فكذب عليه ، وأما المرأة فقد كان حبها من القوة والصدق والإخلاص بحيث حال بينها و بين الكذب مرة أخرى . فاسمع لها تعلن فى صراحة وألم أنها كذبت وأن هذا الرجل قد كذب أيضاً ، وأنها كانت خليلته منذ سنين ، وأن آثامها فى الحياة أكثر عدداً من صلوات القسيس ، وأنها اتخذت جسمها تجارة ، وأنها لا تصلح له زوجا ، وأنها تنبئه بهذا كله لأنها تحبه حقاً . أما هو فقد فقد رشده أو كاد وهو الآن جالس مطرق وقد انصرف عنه الرجل وهمت هى أن تحدثه فلم يسمع لها فتنصرف ، حتى إذا سمع الباب يغلق من دونها أغرق فى البكاء كأنه طفل .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى الفندق الذى تقيم فيه المغنية وقد مضت أيام على ما كان فى الفصل الثانى . ونحن نرى خادم المغنية قد جلست إلى النار تهيء طعام سيدتها ، وفى الغرفة اضطراب يدل على استعداد للسفر . وأنا أعفيك — كارها — من ضروب الحوار المضحك

بين هذه الخادم وأهل الفندق ، وأعفيك أيضاً من كثير من الحوار اللذيذ لأنتهى بك مسرعاً إلى القصة .

فقد أقبل دى روشار معلناً أن المغنية قد ظفرت فى مسرح الأوبرا بفوز لا يشبهه فوز ، وانه ينتظرها فى هذه الغرفة ، وما هى إلا أن تقبل الفتاة رائعة مروعة أيضاً قد أنفقت جهداً عظيما لتخفى ما تحس من ألم ، ولتؤدى واجبها فى الأوبرا . وقد انتهت من هذا الجهد ووصلت الآن إلى غرفتها فتستطيع أن تستسلم لآلامها وهى مستسلمة لهذه الآلام . أليست منصرفة عن صاحبها هذا ، منصرفة عن خادمها ، منصرفة عن هذه الجموع التى أقبلت من الأوبرا تشيعها وتهتف باسمها ، منصرفة عن كل شىء ، قد ألقت بنفسها على الأرض مفكرة أو كالمفكرة والناس يحاورونها ويلحون عليها وهى لا تجيب إلا فى كره وسخط ، وانظر إليها تنهر خادمها فى عنف ثم لا تلبث أن ترق لهذه الخادم فتقبلها فى حنان ، وانظر إليها معرضة عن صاحبها حتى إذا هم أن ينصرف أمسكته ، هى ذاهلة لا تفكر إلا فى صاحبها القسيس وما بعثت فى نفسه من الألم منذ حين ، وهى تتحدث بذلك إلى نفسها مرة وإلى صاحبها مرة أخرى ، حتى إذا عجزت الخادم وعجز صاحبها عن تسليتها أو حملها على أن تأكل انصرفا عنها فخلت إلى نفسها ؛ وما هى إلا أن أقبلت على الصلاة جاثية . ولكن بابها يطرق مرة ومرة ومرة أخرى ، فتنهض وتفتح الباب وإذا القسيس مقبـــل فى شكل بشع رائع ، مضطرب أشد

الاضطراب ، ظاهر الذهول ، حائر الطرف ، لا يكاد يبين ، قد جلل الثلج ثيابه ، ودلت هيئته على أنه قد هام على وجهه غير قليل ، وهو يرتعش من البرد . فإذا سألته فيم أقبل أجابها أجمل جواب وأبدعه وأشده فى النفوس تأثيراً . أجابها : لقد خرجت فهمت ساعات لا أدرى أين أنا و إلى أى وجه أقصد ، ولقيتنى فتاة سألتنى عن طريقها و كنت أنت هذه الفتاة ، منذ ذلك الوقت اختلفت على صور منك لا تحصى ، رأيتك طفلة بائسة تعسة ، ورأيتك فتاة تتغنى فى الشوارع ، ورأيتك باغية تسرف فى الإثم ، ورأيتك لاهية ، ورأيتك جميلة ، ورأيتك دميمة ، رأيتك فى عزة ، ورأيتك فى ذلة ، وأحاطت بى منك صور لا تحصى ، ومضيت وهـذه الصور من حولى حتى مررت بكنيسة كاثوليكيه من كنائسكم فدخلت وجثيت وصليت وفهمت . . . فهمت إنى آثم . . . آثم حقاً ، مسرف فى الإثم ، فهمت أنى أشر ، فهمت أنى مقصر لم أؤد واجبى ، كان حقاً على أن أنقذك بعد أن رأيتك فيما رأيتك فيه من إثم وذل وألم ، ولكنى آثرت نفسى عليك ففررت منك . . . نعم فهمت وجئت الآن لأؤدى هذا الواجب .

أما هى فما كادت تسمع حديثه هذا حتى أخذها شىء من الذهول أشبه شىء بذهول الصوفية . وفى الحق أنها تغيرت تغيراً تاماً وانقطعت الصلة بين حياتها القديمة وحياتها الجديدة . فأسمع لها تهون على صاحبها القسيس وتنبئه بأنه قد بلغ ما كان يريد لأنه قد استنقذها من الآثام

وطهرها من الرجس ، فجحدت حياتها الماضية وابتدأت حياة جديدة ؛ أو قل خلعت شخصها الأول واستحالت شخصاً جديداً . واسمع له وهو يسألها أن تعده ألا تقدم منذ اليوم على إثم وألا تكون منذ اليوم أداة لهو وعبث . فتدفع له كتاباً قد كانت كتبته فيه هذا الوعد ، ولكن قراءة هذا الكتاب تغير من صاحبنا كل شيء ، فانظر إلى نفسه وعواطفه وشهواته الإنسانية وقد ثارت ثورة عنيفة منكرة فمزقت ثياب القسيس وألقتها عنه ، وإذا هو رجل قائم يحس ويشعر ويحب ويشتهى ويرى أمامه موضوع حبه وشهواته ، وإذا هو يعلن هذا الى الفتاة فى عنف ويسرع إليها فيضمها إليه ، وإذا هى تضطرب بين ذراعيه اضطراب الطامع المشفق يرغبها حبها فى الإسماح ويصرفها ما نذرت عن اللهو ، وإذا هى تضرع إليه أن يخليها وترغب إليه فى ألا يكون كغيره من الناس ، وألا يتخذ جسمها كما اتخذوه متاعاً . وإذا هى تعلن إليه فى ضراعة وإشفاق ورهبة إن أمرها بين يديه إن شاء تركها صالحة وإن شاء ردها إلى حيث كانت من الإثم والفساد . وإذا كلماتها ورغبتها واشفاقها تؤثر فى هذا الرجل فتنطلق ذراعاه عنها قليلاً قليلا . وإذا هو جاش مطرق مغرق فى تفكير عميق ، ولكن الليل انتصف وابتدأت السنة ودقت أجراس الكنائس ، وانطلقت بالصلوات ألسنة المؤمنين ، وكأن هذا كله قد انتهى إلى القسيس فأيقظه من نومه ، فينهض متثاقلاً يمر يده على جبينه يعتذر ويستأذن فى الانصراف ليلحق بالمصلين . وانظر

إليه يخرج متثاقلا و إن الظلمة لتنشر فى الغرفة شيئاً فشيئاً حتى تغمرها وتخفى فيها كل شىء ، و إذا المسرح يتغير فجأة كما تغير فى أول القصة ، و إذا نحن فى حجرة الأسقف حين تركناه فى أول القصة يقص على حفيده ما كان من أمره فى شبابه . والفتى يسأله : ثم ماذا كان من أمر هذه المغنية ! فيجيبه : لم أعلم من أمرها شيئاً ، إنما قصصت عليك هذه القصة لتعلم أن تقدم السن بى لم ينسنى أنى كنت شاباً وأنى قد أحببت ، ففكر فى أمر زواجك قبل أن تقدم عليه ، وادع لى أختك فإنها لم تتم لى قراءة الصحيفة .

ويخرج الفتى فيدعو أخته فتقبل وتستأنف القراءة ، فإذا هى فى الأخبار البرقية و إذا هى تقرأ هـذا العنوان : موت مغنية شهيرة كافالينى . فاذا سمع الأسقف هـذا الاسم اضطرب قليلا وطلب إلى الفتاة أن تقرأ فتقرأ أن هـذه المغنية التى ماتت قد انقطعت عن الغناء وانصرفت عن المجـد وزخرف الحيـاة فى ريعان شبابها منذ سـنة ١٨٧٣ ووقفت ثروتها الضخمة على أعمال البر ، و إن الفتاة لتقرأ و إذا الأجراس تدق ، فقد انتصف الليل وابتدأت السنة وألقت الفتاة صحيفتها وتقبل على جدها تهنئه وتقبله ولكنها ترتد عنه قائلة : أرى خدك مبتـلاً ! . . . وخدك الآخر . . . إنك تبكى . . . كلا يا ابنتى ولكن أين أخوك ؟ فتدعو له الفتى ، فإذا أقبل مهنئاً دفع

الشيخ إليه الصحيفة وقال له : اقرأ هذا . فإذا حاول الفتى أنه يظهر شيئاً من الدهش دعاه الشيخ الى الصمت قائلا : أتذكر صاحبتك الممثلة ، اتخذها زوجاً ، و إنه ليقول ذلك و إن القصة لتنتهى بينما تصل الى الآذان من بعيد جداً أنغام هذا الصوت الذى سمعناه أول القصة .

« أتعرف ذلك البلد الذى يزهر فيه البرتقال . . . ؟ »

نوفمبر سنة ١٩٢٦

انثوانيت سابرييه

قصة تمثيلية بقلم الكاتب الفرنسى « رومان كولوس »

مثلت هذه القصة لأول مرة فى اكتوبر سنة ١٩٠٣ ، وما يزال الممثلون يلعبونها إلى الآن . وأكبر الظن أنهم سيلعبونها زمناً طويلاً أيضاً . ذلك لأنها من القصص التى تعجب جمهور النّظّارة وتأخذ عليهم قلوبهم وألبابهم ، وتثير فى نفوسهم من العواطف ما يدفعهم إلى تشجيع الممثلين على الاحتفاظ بها وإعادة لعبها من حين إلى حين .

والحق أنك لا تكاد تمضى فى قراءة هذه القصة حتى تلاحظ أمرين مختلفين ، ولكنهما خليقان بالإعجاب ، كفيلان بأن يطول بقاؤها فى ملاعب التمثيل . أحدهما أن الكاتب قد راعى حين وضعها ، لا أقول أصول الفن ، وإنما أقول أصول المنطق ونظام التفكير الإنسانى مراعاة دقيقة جداً . فأنت تتنقل بين مناظرها وفصولها ، كما تتنقل بين قضايا القياس المنطقى المتقن . قد وضع كل شىء فيها موضعه لا يستطيع أن يتجاوزه ولا ينبغى له أن يتقدم أو يتأخر . وأنت لا تفرغ من قراءة منظر حتى تتوقع المنظر الذى يليه ، وما تزال كذلك طوَالَ الفصل

الأول وطوالَ الفصل الثانى ، حتى إذا كدت تفرغ منه فجأتك المصادفة التى لم تكن تنتظر والتى لم يكن منها بدٌّ لتنشأ المشكلة التى تدور حولها القصة . فإذا كانت هذه المصادفة فقد نشأت هذه المشكلة وتعقدت وانتهت إلى أقصى ما كان يمكن أن تنتهى إليه من العنف والشدة . ولكننا نعود فى الوقت نفسه إلى هدوء المنطق ، وتتصل الحوادث أمامنا مطردة مستقيمة يتبع بعضها بعضاً وينتج بعضها من بعض حتى تنتهى إلى نتيجتها الطبيعية المعقولة ، وهى نتيجة محزنة ، يألم لها الجمهور ، ويُعْجَبُ بها ، ويحرِص على أن تتكرر أمامه فى الملاعب .

هذا أحد الأمرين . الأمر الثانى أن القصة كلها صراع عنيف بين طائفة من العواطف والواجبات قد ألفها أوساط الناس واطمأنوا إليها وتعوّدوا أن يقبلوها كما هى لا يضعونها موضع المناقشة ولا الجدال . فما يعجبهم أن يُظهر الكاتب هذه العواطف والواجبات وقد اصطدمت وتناقضت ووقف بعضها من بعض موقف الحرب والخصومة القوية . فنحن نرى فى القصة صراعاً بين الحب والصداقة ، و بين الحب والواجب ، و بين الصداقة والواجب ، و بين الحب المشروع والحب الذى لا يبرأ من الإثم والخيانة ، و بين الوفاء الزوجى وهذا الحب الأثيم ، ثم بين الشرف والمنفعة ، ثم بين الشرف والحب والحياة . وكل هذه العواطف والواجبات قد مثّلها الكاتب تمثيلا قويّاً صادقاً ، وتخيّر لها أشخاصاً يتقمصونها تقمصاً ، إن راقك هذا التعبير . ونحن نلذّ أن نرى هؤلاء الأشخاص

يختصمون ويجاهد بعضهم بعضاً ، ويجاهد كل واحد منهما نفسه . ونحن نقف أمام النتيجة الأخيرة لهذا كله موقف المطمئن المستسلم الذى يقول مع الشاعر العربى القديم : « لا بدَّ مما ليس منه بدٌّ » والذى يستطيع فى الوقت نفسه أن يمضى إلى ما وراء القصة ويعرف ما يتم بين هؤلاء الأشخاص من توادع وتراض يقومان على الحزن والاستسلام لهذه القوانين الصارمة التى تدمّر حياة الإنسان .

فاذا أضفت إلى هاتين الخصلتين خصلة ثالثة هى الإتقان الفنىّ من الناحية الكتابية الصرفة وحسن تخير الألفاظ والمهارة فى تدبير الحوار ، استطعت أن تتبين السر فى أن هذه القصة لم تتجاوز شبابها بعد وإن كانت قد نيّفت على العشرين .

ولنبدأ فى تحليلها كما تعوّدنا البدء فى تحليل هذه القصص بعرض أشخاصها عليك فى إيجاز لأنهم كثيرون .

أول هؤلاء الأشخاص وأحقهم بالعناية هى بطلة القصة التى سميت باسمها وهى « أنتوانيت سابرييه » . نعرفها ولما نقرأ من القصة أسطراً ، ونعرف فى الوقت نفسه أنها امرأة قوية الشخصية لأنها بثّت الحسد من حولها ، وأطلقت ألسنة النساء بالقول المختلف فى سيرتها وحظها ووفائها وما يتصل بذلك . وهى فى حقيقة الأمر امرأة قوية الشخصية ، عظيمة الحظ من الإرادة ، قادرة كل القدرة على أن تضبط نفسها وتسير سيرة تلائم الواجب والخلق ومكانتها الاجتماعية الرفيعة وإن لم تلائم مثلها

الأعلى فى الحياة وحاجتها إلى ما يطلب النساء من اللذة ونعيم العيش . هى متوسطة السن ليست شابة ولكنها محتفظة بجمال الشباب وروعته وقوته أيضا . خفيفة الروح ، جذابة ، راجحة الحلم ، يظهر عليها الهدوء والرزانة والرضا ، ولكن قلبها جذوة من النار مضطرمة أشد الاضطرام وقلما يحس ذلك أحد غيرها . وهى كما قدمنا مالكة لهذا القلب ، قادرة على تصريفه كما تحب وحيث تحب إلا أن يعرض لها شخص آخر أشد منها قوة وأبعد منها أثراً .

تزوجت من رجل يشبهها من بعض الوجوه ويخالفها من بعضها الآخر ، وهو « جرمان سابرييه » قوى الإرادة مثلها ، متقد القلب مثلها ، ضابط لنفسه مثلها أيضاً ، ولكنه قد عرف طريقه فمضى فيها اندفاعاً ، وأذعن له الفوز فى كل ما حاول من الأمر . كان ضئيلاً فقيراً يعمل فى سوق الأوراق المالية ، فما هى إلا أن اندفع فى هـذا الطريق حتى أصبح من كبار الماليين فى أقل من عشرة أعوام . وهو اليوم زعيم من زعماء المصارف وملك من ملوك البورصة ، يتقرب إليه الناس ويتهالكون عليه ويحسدونه ويتربصون به المكروه . وهو مطمئن إلى حظه ، واثق بالمستقبل ، لا يشفق ولا يخاف ، ولا يتردد ولا يحسبُ إذا أراد أن يُقْدِم على شىء . وهو يحب امرأته حبًّا قويًّا حاداً ولكنهُ غريب ، فهو لا يظهر لامرأته هذا الحب على النحو المألوف ، وإنما هو مقتنع بأنه يرضى امرأته وعواطفها وميولها إذا أغناها وضمن لها

حياة مترفة خلابة تبعث الحسد وغبطة النساء . وهو يخيَّل إليه أنه مصيب من حب امرأته ما أراد ، لا يسأل نفسه أراضية هى أم ساخطة، أقانعة أم محرومة ؟

و بين هذين الزوجين شخص ثالث هو « دوراى » متقدم فى السن بعض التقدم ، قوى الإرادة جداً ، قادر على ضبط نفسه ، فى قلبه جذوة تضطرم من الحب، ولـكنهُ قد سيطر عليها واستطاع أن يلطفها حتى يجعلها جذوة وفاء ومودة بريئة طاهرة . أحبَّ « انتوانيت » وحاول أن يظفر بحبها فلم يوفق ، ولـكنه ظفر منها بالمودة فقنع ورضى من حياته بساعات ينفقها من كل يوم مع هذه المرأة فى حديث برىء ونصح ومودة راضية ، يجدان فى هذا كله لذة لا تشبهها لذة . وانطلقت ألسنة الناس فيهما بألوان القول ، ولـكنهما لا يحفلان بذلك ، ولا يحفل بذلك الزوج نفسه لأنه شديد الثقة بامرأته ، شديد الثقة بصديقه .

ولهذا الصديق أخت شابة هى « إيلين » رائعة الجمال ، خلاّبة المنظر ، شديدة التسلط ، قوية الإرادة ، مضطرمة المزاج ، قد بلغت العشرين من عمرها ، وليس لها إلا أخوها هذا ، فهو يقوم منها مقام الأب والأم والمربية . حتى تظفر بما يليق بها فى الزواج . وهى تحب رجلاً ليس أقل من الذين تقدموه قوة إرادة ولا حدة عاطفة ولا اضطرام قلب ، هو « رينه دانجين » ، غنىّ ، ضخم الثروة ، وسيم الطلعة ، محبب إلى النساء بعيد الأثر فى نفوسهن ، مفتون بالأدب والفن والقراءة ، منصرف

عن حياة أبيه الصناعية المالية ، قد أغضب أباه إغضاباً شديداً ، وانقطع عما يتردد عليه أمثاله من الأندية ومجالس اللهو والعمل . تحب الفتاة هذا الرجل ، وهو يظهر لها ميلاً شديداً تحسبه الحب وليس هو من الحب فى شىء ، إنما هو لون من العطف والمودة والأنس إليها .

هؤلاء هم أشخاص القصة أو قل أبطالها كما تعوّد نقّاد التمثيل أن يقولوا . ومن حولهم أشخاص كثيرون قد اختطفهم الكاتب اختطافاً ، ولمّح لك بصورهم النفسية تلميحاً ، فبلغ فى ذلك ما شاء من الإجادة والإتقان : منهم هذه المرأة الباريسية التى نجدها فى أول القصة تتحدث إلى زوجها ورجلٍ آخر فى دعابة ودَلّ باريسيين ، وهى تطلق لسانها فى « أنتوانيت » وزوجها وصديقها ، وهى تظهر غيرة على الفضيلة والشرف والعفة والوفاء ، ولكنها لا تكاد تلمح الرجل الذى يعجبها حتى تبتذل هذا كله ابتذالاً وتنزل عنهُ فى ابتسامة أقل ما توصف به أنها تحمل على الابتسام .

ومنهم هذا الصحفى الذى حملتهُ صناعته على أن يتتبع مثالب الناس و يلمّ بدخائلهم حتى أصبح صاحب الفتوى من هذا النوع من الغيبة ، يلجأ إليه المغتابون ليجدوا عنده ما يحتاجون إليه من ألوان الطعن والتشنيع . وهو على هذا كله يحاول أن يكون رجل جدٍّ وصدق ووفاء بالمودة . فإذا سئل عن مثالب « انتوانيت » أعلن فى حزم أنه لا يعرف عنها إلا خيراً . ولكنه لا يكاد يتبين الإغراء فى عين محدّثه حتى ينسى

الجدّ والصدق والوفاء ويقع فى « انتوانيت » بما تشاء صاحبته من الطعن والثلب .

ومنهم هذه الصديقة الوفية التى تُخلص لصديقتها الحب والمودة وتنصح لها جادة رفيقة ، ولكنها أضعف من أن تنصر الواجب وتمضى فى نصره إلى النهاية ، فهى لا تكاد ترى صديقتها مبتهجة سعيدة بهذا الحب الآثم حتى تدعها وما تريد طالبة إليها ألا يصرفها الحب عن مودتها .

ومنهم هذا الشخص الأخير الذى نلم به إلمامة قصيرة لأنه شائع بين الناس فى جميع أطوارهم وبيئاتهم ، هذا الذى يحبك ويقدِّم إليك ما تحتاج إليه من معونة وتأييد لأن له عندك حاجة ، فإذا لم يظفر منك بما يريد تخلّى عنك فى سهولة وقسوة لا يحفل من أمرك بشىء ، وربما استحال عدوًّا لك لا يرضيه إلا أن تنزل بك النازلة ، لا يتأثر فى شىء من ذلك بخُلق ولا واجب ولا رحمة ولا شىء من هذه العواطف التى يتأثر بها أخيار الناس .

هؤلاء هم أشخاص القصة أو هم كثرة هؤلاء الأشخاص . وأحسبنى أستطيع بعد ذلك أن أُلخّص لك . وأحسبك تستطيع أن تفهم هذا التخليص الموجز فى غير مشقة .

* * *

نحن فى ضاحية من ضواحى باريس ، فى قصر فخم ، قد استأجره

الزوجان ليقضيا فيه الصيف . وهما يحتفلان هذا اليوم بعض هذه الاحتفالات التى يقيمها الأغنياء ، وقد دعى إلى هذا الاحتفال سَراة باريس وأصحاب المكانة فيها ومعهم النساء الحسان يفتنّ الناس بجمالهن ودعابتهن وتنطلق ألسنتهن بما فيه لذة وسحر .

ولا يكاد يرفع الستار عن هذا الفصل حتى نرى هذه المرأة الباريسية بين زوجها وصديقه ، تتحدث إليهما فى أمر الزوجين ، فتقع فى الرجل بأنه موفَّق فى حياته المالية وأنها تكره الموفقين وتشبههم باللصوص ، وتقع فى المرأة بأنها آثمة تعين زوجها بالإثم على ما يسعى إليه من ثروة . فينكر عليها الرجلان هذا . ويأتى الصحفى فيستفتونه جميعاً فى أمر « انتوانيت » فيجيبهم بالخير ، ولكنه لا يكاد ينظر فى عين صاحبته حتى يرى الإغراء والإطماع ، فيتحول عن الوفاء ويقع فى « انتوانيت » ، وبعد أن كان يريد أن ينصرف إلى صحيفته لأداء عمله نراه يُؤْثِر البقاء ويكتفى بالتليفون .

ونحن نرى المدعوين يترددون فى القصر وحديقته يقف كل فريق منهم وقفته على المسرح ، يتحدثون أمام النظارة وقتاً قصيراً ليبينوا فيه بعض ما قدّمت لك من نفسية هؤلاء الأشخاص جميعاً .

فلنمر بهذا الفصل لا نقف منه إلا عند منظرين أو ثلاثة لا بد من الوقوف عندها حيناً . نقف عند هذا المنظر الذى يمثل لنا «انتوانيت» قد أقبلت على صديقها « دوراى » مضطربة كأنها تلتمسه لتشكو إليه

بعض الأمر ، فيسألها فتتردد ، ثم تخبره فى استحياء بأن « جامانى » هذا
المالى العظيم الذى لا بد لزوجها من معونته قد أرادها على السوء
فامتنعت عليه فى رفق ، فانصرف مغيظاً محنقاً . ونقف عند هذا المنظر
الذى يمثل لنا «دوراى» وهو يقدم صديقه «رينه دانجين» إلى صاحب
القصر ، و يمثل لنا صاحب القصر وهو يعرض على هذا الرجل الاشتراك
معه فى بعض الأعمال المالية فيعتذر إليه . ثم نمر مسرعين بهذا المنظر
الذى يمثل لنا «انتوانيت» وقد لقيت هذه المرأة الباريسية التى رأيناها
فى أول القصة ومعها صاحبها الصحفى قد استسلم لها استسلاماً ، فيقع بين
المرأتين حوار فيه الحسد والتعريض المر ، وفيه من ناحية «انتوانيت»
الدفاع عن النفس فى رشاقة وترفع . ثم تخلو «انتوانيت» إلى صديقتها
فتتحدثان ، فنفهم من هذا الحديث أنها لا تحب زوجها ولا تظفر عنده
بما تريد ، ولكنها مع ذلك حريصة على الوفاء له ، لم تخنه ولن تستطيع
أن تخونه ، وهى تعاشره وتشاطره الحياة ، و إذا قدر لها أن تظفر بالحب
فلن تذوق لذته حتى تقطع الصلة بينها و بين زوجها . ثم نقف آخر الأمر
عند هذا المنظر الذى يمثل لنا «انتوانيت» وقد لقيت «رينه دانجين»
فلم يكادا يتحدثان حتى وقع من نفسها ووقعت من نفسه ، وكان بينهما
هذا الحب الفجائى الذى يسميه الفرنسيون « وقع الصاعقة » و إذا هما
يضطربان أشد الاضطراب ، يقع بينهما حوار قصير يريدان أن يتناولا

به كل شيء فلا يتناولان فيه إلا أنفسهما وسوء حظهما فيما مضى من حياتهما ، و ينتهيان وقد تواعدا على المودة .

وتمضى ثلاثة أشهر ، و يرفع الستار عن الفصل الثانى . فاذا نحن فى القصر نفسه آخر النهار ، وقد جلست « انتوانيت » إلى منضدة ترتب طائفة من الأوراق ، ودخلت عليها صديقتها التى رأيناها فى الفصل الأول ، فتسأل « انتوانيت » فيم كتبت إليها تدعوها لزيارتها . وتجيبها « انتوانيت » بما كنا نتوقعه فى آخر الفصل الأول من أنها قد أحبت صاحبها حباً لا تجد إلى مقاومته سبيلا ، وأحبها هو كذلك ، وانتهى هذا الحب إلى نتيجته الطبيعية ، وهى أنهما قد اعتزما السفر من فرنسا إلى حيث يجدان الحرية . وهى لم تخن زوجها بعد ، وما ينبغى لها أن تخونه ، وهى تعاشره وتعيش فى بيته . فاذا ذكرت لها صديقتها أن هذا لا يعفيها من الإثم ، فهى مدينة لزوجها بالوفاء حتى يطلقها ، وزوجها يحبها وهو لم يسىء إليها ، وليس من حقها أن تؤذيه أو تسوءه ، أجابت بلسان هذا الحب القوى الآثم إن زوجها لن يطلقها إن طلبت إليه ذلك ، وأنها هى لا تحبه ، وهى تحب هذا الرجل ، ولها حقها فى الحياة ولذاتها ، فما ينبغى لها أن تضحى بنفسها وصاحبها فى سبيل هذا الزواج الذى لا تحبه . وفى الحق أن الحب قد فتن هذه المرأة ، وانتهى بها إلى هذه الأثرة التى ينتهى إليها العشاق عادة ، فهى تضحى بزوجها وصديقها « دوراى »

وأخته « ايلين » التى تحب هذا الرجل . ولا عذر لها فى ذلك إلا أنها تحب ، وأن صاحبها يحبها ، وأنها كانت تنتظر هذا الحب ، فما ينبغى أن تمتنع عليه وقد أتيح لها . وصديقتها تسمع هذا فلا تقتنع به ، ولكنها مترددة بين الدفاع عن الواجب والاحتفاظ بمودة صديقتها ، فتستسلم وتتمنى لصديقتها التوفيق . ولئن ضعفت هذه الصديقة عن أن تقف فى وجه الحب الآثم وتحتمل ثقل الدفاع عن الواجب ، فلن يضعف عن هذا صديقها « دوراى » ؛ فقد أقبل ومعه أخته . فما هى إلا أن يخلو إلى صاحبته و يتبين ما عزمت عليه حتى ينفجر انفجاراً : يلوم صاحبته لوماً عنيفاً ، لأنها تضحى بزوجها ، ولأنها تضحى به هو ، ولأنها تندفع مع الأثرة إلى غير حد ، وهو يرعد حيناً و يستعطف حيناً آخر ، و يستسلم مرة أخرى إلى البكاء . ولكن الانتصار على هذا الرجل يسير ، فهو متهم فى غضبه للواجب ودفاعه عنه ، هو لا يدافع عن الزوج ولا عن الزواج ، و إنما يدافع عن نفسه لأن صاحبته انصرفت عنه ، وستدعه وتنصرف إلى حيث تستثمر الحب فى دعة وأمن ، فى حين يشقى هو بالوحدة والأسى والحرمان . هو يدافع عن نفسه ، و إذاً هو أثر ، و إذاً فليس هو بالصديق حقاً . ولو كان صديقاً حقاً لقبل التضحية فى ألم طبعاً ولكن فى رضا و إذعان وما أسرع ما تنتصر عليه وتلزمه الحجة ، وقد تقدم إليها وانصرف الزائرون ، وأقبل حبيبها فاتفقا على أن يفرا بعد حين قصير ، ينتهزان غيبة زوجها فى لندرة و يمضى بهما الأتوموبيل إلى حيث يركبان

السفينة إلى أميركا . ويدعها صاحبها على أن ينتظرها أمام القصر ، وهى تدعو خادمتها فتصدر إليها أوامر قصيرة تتصل بهذا السفر وتصرفها . وانظر إليها قد نهضت وتهيأت للخروج إلى حيث ينتظرها صاحبها وهى تلقى بنظرة وداع على الحجرة وما فيها . وإذاً فسيظل الواجب مهيضاً وسينتصر عليه الحب الآثم ! وستمضى هذه المرأة مع رفيقها ، وسيعود الزوج فيرى نفسه فى هذا القصر و بين هذا الترف وحيداً . يتقوض من حوله كل شىء ؟ . . . كلا ! وما الذى يمنع الصداقة أن تدافع عن هذا الواجب ؟ أنظر إلى صاحبتنا تخطو لتخرج من الحجرة ، ولكنها تصيح وتتراجع مذعورة ، لأنها رأت رجلا وهذا الرجل هو زوجها وقد أقبل من لندرة قبل ميعاد العودة . ولكن انظر إليه إنه مضطرب قد انهدت قواه وفقد ما كان يمتاز به من شدة وصلابة وثقة بنفسه وبالدهر . وامرأته تسأله : فيم عجل هذه العودة ؟ وهو يتردد فى إجابتها ، حتى إذا وجد القوة على الكلام أخبر امرأته بأنه فى ضيق مالى منكر ؛ لأن شركاءه قد أسلموه وأجمعوا على خيانته . وكان زعيم هذه الخيانة « جامانى » الذى رأيناه فى الفصل الأول يريد أنتوانيت على السوء وينصرف محنقاً لأنها امتنعت عليه . والرجل لا يتبين سبب هذه الخيانة ، أما نحن فنعرفه حق المعرفة . ومهما يكن من شىء فإن صاحبنا مضطر إلى نصف مليون من الفرنكات يجب أن يؤديه بعد ثمانية أيام ، وقد سلك إلى هذا المقدار

كل سبيل فلم يظفر به . وهو إن لم يؤده مفلس ثم مقبوض عليه ثم ملقى فى غيابات السجن . . .

يقص هذا كله على امرأته وهى تسمعه فى شىء يشبه الهدوء ، ولكنه يدل على ثورة عنيفة داخلية . وانظر إليها وقد تغيرت تغيراً تاماً ؛ فهى تشجع زوجها وتنصح له بالجلد والمضى فى الجهاد ، وتعلن إليه أن ثمانية أيام ليست بالشىء القليل ، وأنه واجد فيها مخرجًا من هذا الضيق ، ويقع هذا الكلام من قلب الرجل موقعاً حسناً ، ويمنحه قوة وجلداً فيعد باستئناف الجهاد . وانظر إليه وقد نهض قوياً مستعداً للحرب ، وانصرف إلى باريس وترك زوجه فى شىء يشبه الذهول . ينصرف الرجل وتغلق الباب من ورائه ، وإذا صديقها قد أقبل يتعجلها ، فتعلن إليه أنها لن تسافر الآن . ويكون بينهما حوار عنيف ، نفهم منه أن هذه المرأة كانت تظن أنها ستدع زوجها غنياً قوياً يستطيع أن يتعزى عن الحب بالثروة والقوة . فأما الآن وقد أعدم وضعف فلا تستطيع أن تدعه . وهى تحب صاحبها ، ولكنها تطلب إلى هذا الحب أن يمهلها حتى يسترد زوجها قوته وثروته . ولكن الحب عجل لا يمهل ، وصاحبها يعلن إليها فى عنف أنه منصرف عنها إلى حيث لن تراه ، وأنها لم تحبه كما يحبها . وانظر إليه وقد ولى منصرفاً . واستولى الجزع على هذه المرأة ، فهى لعبة بين الحب وشهوته ، وبين الواجب وأمره الذى لا يرد . إنها تدعو صاحبها ملحة عليه ، فإذا أقبل عليها تضرعت إليه فى أن يبقى فيأبى ، وإذا هى قد

غيرت من خطتها فجاءة وضحت بالأمانة الزوجية فى سبيل الحب من ناحية وفى سبيل الوفاء لزوجها والإشفاق عليه من ناحية أخرى ، وإذا هى تلقى بنفسها بين ذراعى صاحبها وقد استسلمت للإثم .

* * *

وتمضى من الأيام الثمانية سبعة ولم يجد الرجل لنفسه مخرجاً من ضيقه . ونحن الآن فى مصرفه وقد أقبل يائساً مستسلماً مستعداً للافلاس والمحاكمة والسجن . وأقبل عليه صديقه « دوراى » ينبئه بأنه قد سعى عند كثير من الماليين فلم يوفق لشىء ، ولكنه وفق أخيراً لرجل لا يعمل فى المال ولا فى البورصة ، ولكنه مستعد لتقديم هذا المقدار ، وسيأتى بعد حين ليعرض المال على صديقه . وهذا الرجل هو « رينه دانجين » . فإذا سمع صاحبنا اسم هذا الرجل أخذه غضب شديد وأعلن أنه لن يقبل منه هذه المعونة . فاذا دهش صديقه لذلك أعلن اليه بعد تردد أن هذا الرجل قد أكثر التردد على قصره والتقرب من زوجه وقد عرف الناس ذلك وتحدثوا به ، فإذا عرف الناس أنه قد أعانه فسيتحدثون أنه قبل هذه المعونة ثمناً لما بين الحبيبين من صلة . وهنا يغضب « دوراى » ويقف موقفاً بديعاً فى الدفاع عن « أنتوانيت » فهو مؤمن بطهارتها ، مؤمن بأنها لم تخن زوجها وما كانت لتخونه حتى تفارقه . وهو يمضى فى هذا الدفاع إلى أبعد حد ممكن ، فيعلن إلى صديقه أنه إن كان قد وصل إلى هذا الحد من الضيق فذلك لأن امرأته امتنعت

على « جامانى » ويعلن الى صديقه أنه هو قد حاول أعواماً أن يصل إلى « انتوانيت » فلم يظفر منها بشىء . وقد كاد يقنع صديقه ببراءة زوجه وطهارتها ، وكاد يقنعه بأنه يستطيع أن يقبل هذه المعونة ، وقد دعا الخادم وأمره أن يتحدث الى زوجه فى التليفون يطلب اليها أن تحضر ، وأقبل الرجل يعرض معونته ، فإذا خلا إلى صاحبنا طلب اليه هذا : أتستطيع أن تقسم لى بشرفك أنى أستطيع أن أقبل هذه المعونة منك دون غضاضة أو تعرض للدنية ؟ فيقسم له ويهيىء « الشيك » ويهيىء هو صكاً بهذا المقدار .

وتقبل « أنتوانيت » ، فينبئها بأنه قد أخفق فى سعيه كله ، ولكن هذا الرجل يعرض عليه ما هو فى حاجة اليه . فتحاول أن تشكر الرجل مضطربة وقد تم كل شىء ، ولم يبق إلا أن يمضى صاحبنا الصك . ولكنه يتجه إلى امرأته وصاحبه قبل أن يمضى ويسألهما فى قوة وإلحاح : أيمضى هذا الصك ؟ فأما الرجل فيجيبه : نعم . وأما المرأة فيأخذها الإغماء . وأما صاحبنا فقد فهم كل شىء . وانظر إليه محنقاً قد ألقى ما فى يده وأخذ ينتهر الآثمين فى شدة وعنف ، وما زال بالرجل حتى أخرجه وهو الآن أمام امرأته وحدها يأمرها أن تنصرف فتستعطف فلا يزيده استعطافها إلا سخطاً وحنقاً . ومع ذلك فالرجل فى محنة منكرة وقد جاهد أسابيع وضعف عن المقاومة ، وهو فى حاجة إلى من يؤيده ويشد أزره ويعينه على هذه الأيام المرة التى يستقبلها . فانظر اليه وقد عفا

أو كاد يعفو عن امرأته ، ولكنه يريد منها أن تنصرف عن هذا الرجل وتنساه وتبقى له هو وحده و يسألها أتستطيع ذلك ؟ فلا تجد إلى جوابه سبيلاً . فإذا ألح عليها فى السؤال عرف منها أنها لا تستطيع . فانظر إليه ضعيفاً مستسلماً مغضباً مع ذلك شريفاً ، يطرد زوجته وهى تأبى عليه، وتعرض عليه ما تستطيع من أن تعيش معه حليفة معينة ولكن فى غير حب ، لأنها لا تملك هذا الحب ، ولا تستطيع إخضاعه لإرادتها . وهو يأبى عليها و يلح فى طردها ، فتنصرف معلنة إليه أنها ستنتظره فى البيت ، فاذا تركته نهض إلى أبواب الغرفة فغلَّقها ، ثم يعود الى مكتبه و يخرج منه مسدساً و يرتب طائفة من الأوراق ، وقد طرق الباب فكان جوابه طلقة المسدس التى تختم بها مثل هذه القصص .

يناير سنة ١٩٢٧

الشاب الجميل

قصة تمثيلية فكاهية للكاتب الفرنسى « الفريد كابو »

هى إحدى هذه القصص التى يتقنها كبار الكتاب الفرنسيين ، والتى تقرؤها أو تشهدها فتشعر بشىء كثير من الراحة لقراءتها أو رؤيتها ، وتشعر بأن الكاتب لم يتكلف جهداً ولا مشقة حين كتبها ، بل تشعر بأن الكاتب قد استراح إلى كتابتها ، ووجد من اللذة فى تنسيق فصولها ومناظرها مثل ما تجد أنت فى قراءتها أو النظر إليها . بل تشعر بأن الكاتب قد ابتسم عند ما خطر له موضوعها ، ونشط للكتابة فى هذا الموضوع فأخذ قلمه باسماً ، وظل يكتب باسماً ، وانتهى من الكتابة ولم تفارقه بسمته ، أو قل انتهى من الكتابة وهو يضحك . على أنك تشعر فوق هذا كله بأن ابتسامة الكاتب وابتسامتك أنت حين تقرأ القصة أو تشهدها ليست ابتسامة حلوة كلها وإنما تشوب حلاوتها مرارة ما . ليست ابتسامة عبث ، ولا ابتسامة سخرية ، وإنما هى إحدى هذه الابتسامات التى تمثل الأمرين جميعاً : فيها العبث لأن بين الأشخاص وفى أخلاقهم وحركاتهم ما يدعو إليه . وفيها السخرية لأن فى هذه

الأخلاق والحركات ما يحمل الرجل المستقيم ذا المزاج المعتدل على أن يهز كتفيه . وفيها إلى هذا العبث وهذه السخرية شيء من الألم الهادىء والأمل الذى يخلق بالفيلسوف ؛ لأن هذه الأخلاق والحركات — على أنها خليقة بشيء من الازدراء وعلى أنها شائعة وعلى أنها قوام الحياة — ليست خالدة جامدة ، ولاعسيرة مستعصية على الإصلاح ؛ فهى منكرة بعض النكر ، ولكنها قابلة لأن يعتدل منحرفها و يستقيم بعض ما فيها من العوج .

تجد هذا كله حين تقرأ القصة أو تشهدها . وتشعر بشيء من الغبطة والرضا والحاجة إلى أن تشكر للكاتب أنه قد أرضاك وألهاك دون أن يثير فى نفسك هذه الانفعالات الحادة التى تثيرها القصص المحزنة ، ودون أن يسلط عليك هـذا الضحك العنيف الذى تبعثه القصص المضحكة بالمعنى الذى يفهمه الممثلون لهذه الكلمة ، و إنما أرضاك وألهاك فى هدوء ودعة ، أو قل إنه حقق ما أنت محتاج إليه من هذه الراحة التى يطمع فيها العاملون وقد أنفقوا يومهم فى الجهد والمشقة .

ثم أنت واجد فى هذه القصة ناحية من الحياة الفرنسية قلما تجدها فيما ألفت قراءته ورؤيته من القصص التمثيلية ، وهى حياة طائفة من أهل الأقاليم . ولكاتبنا هذا عناية بأهل الأقاليم نعرض عليك منها نموذجاً فى هذا التلخيص ، ونرجو أن نعرض عليك منها نموذجاً آخر فى غير هذا الفصل . ثم أنت واجد فى هذه القصة ما تجده فى قصص

هذا الكاتب جميعاً من هذا المذهب الفلسفى الذى يقوم على المصادفة ويضيف إليها الأثر الأكبر فيما يملأ الحياة من عمل ، وما يعترض الناس من خطوب .

ولقد أحب أن أسلك فى هذه القصة نفس الطريق التى تعودت أن أسلكها فى القصص الأخرى ، فأقدم إليك أشخاصها فى شىء من الإيجاز . ولكنى أشعر بأن هذه التقدمة لن تكون قوية ولا خلابة لأن الأشخاص فى أنفسهم ليسوا أقوياء ولا خلابين . وأشعر أيضاً بشىء من الخوف لأنى أحس أنى سأتورط فى تقصير شديد عن أن أبعث فى نفسك مثل ما بعث الكاتب فى نفسى من الراحة والرضا والابتهاج . ذلك لأن لذة هذه القصة وأمثالها تأتى من اللفظ فى كثير من الأحيان ، وتأتى من اللفظ لنفسه أى من حيث يصعب أن يترجم وينقل من لغة إلى لغة . ولكنى على هذا كله مجتهد فى تلخيص هذه القصة .

وإذا لم يكن بدٌّ من تقديم هؤلاء الأشخاص فلأبدأ بأشدهم قوة وأعظمهم أثراً فيها ، وهو « ڤالنتين بريدو » شاب فى الثامنة والعشرين من عمره ، وسيم الطلعة حين تقع العين عليه ، ولكنه ليس بالجميل حقاً إذا أحسنت التحديق فيه ، قد ظفر بالشهادة الثانوية فى الآداب ، وهو إذا تكلم أو كتب خُيِّل إلى من يسمعه أو يقرؤه أنهُ عظيمُ الحظ من العلم ، كاتب متحدث منطلق اللسان ، فاذا حقق النظر فيه ظهر أنهُ ليس شيئاً أو لا يكاد يكون شيئاً . هو ، كما يقول الكاتب ، من هؤلاء

الأشخاص الذين يعجبون النساء لأن عليهم سمة الجمال ولهم مظهر الذكاء ، وليسوا بالحسان ولا الأذكياء ، وهو مدير لمكتبة المدينة التى يعيش فيها ، يتقاضى راتباً ضئيلاً ولكنهُ ضخم بالنسبة إلى مدن الأقاليم . وهو بطبيعة الحال شديد الإعجاب بنفسه ، شديد الطمع ، شديد الازدراء للناس ، مقتنع كل الاقتناع بأنهُ يشهد عصر انتقال يفنى فيه جيل و ينهض فيه جيل آخر . فأما هذا الجيل الفانى فقد استنفد قوتهُ وأصبح غير صالح للبقاء . وأما هذا الجيل الناهض فهو ممتلىء قوة ونشاطاً ، ولكن الشيوخ يأخذون عليه الطريق ولا بد له من أن يقهرهم . وصاحبنا ساخط لا يرضى عن حاله ولا يطمئن إلا إذا ظفر فى باريس بالمكانة التى تلائمه .

وله فى مكتبته رفيق يعينه ، متوسط ، دميم الخلق ، ساذج الطبع ، راض بما قسمهُ الله له ، حريص على مكانته ، جادّ فى طاعة النظم والقوانين ، منكر على صاحبه طيشه ونزقه وطمعه .

ثم شخص آخر هو جونيل فى السادسة والأربعين من عمره ، ضخم الثروة معتدل المزاج ولكنهُ لا يخلو من طمع ، يريد أن يكون عضواً فى مجلس الشيوخ ، وهو مخالف للحكومة القائمة فى الرأى ، على أن ثروته وجمال امرأته يشجعان على الطمع فى الانتصار على مرشح الحكومة .

ولهذا الرجل امرأتهُ كلوتيلد شابة جميلة ، معتدلة المزاج أيضاً ، شديدة البغض للسياسة والانتخابات والأعمال العامة ، لا تطمع إلا فى أن يبقى لها زوجها منقطعاً إليها يلهيها و يمتعها بثروته الضخمة . وهى تبذل

ما تملك من جهد لتصرف زوجها عن مجلس الشيوخ ، وهى تنذره بالخيانة إن أصبح شيخاً ؛ لأن ذلك لا يلائم سنها ، ولأن بين الناس من يتملقها وقد وعدتهُ بالإسماح له يوم يصبح زوجها شيخاً . ولكن زوجها يأبى إلا أن يكون شيخاً ، ولا يأبى على نفسه التفكير فى أنهُ قد يصل إلى الوزارة . وهو مطمئن إلى زوجه لا يحفل بوعيدها ، ولا يشك فى أنها وفية له مهما يكن من شىء .

وهناك فتاة أخرى مارت أو برى معلمة فى المدينة ، رائعة الجمال ، طيبة النفس ، مستقيمة الخلق ، أدركها اليتم هى وأختها ولما يتمّ تعليمهما فمضتا حتى أتمتاه . فأما أختها فآثرت العاجلة وانطلقت مع أول رجل غنى عرض عليها الترف والثروة . وأما هى فآثرت الاستقامة والحياة الشريفة ، وقنِعت بمنصب المعلّمة فى إحدى مدن الأقاليم . وهى تحب « فالنتين برينو » مدير المكتبة هذا الذى قدَّمتهُ لك منذ حين ، وهى تطمع فى أن تقترن به ، وهى تتردد على المكتبة فى كل يوم تزعم أنها تريد البحث فى دائرة المعارف ، ولكنها لا تريد فى حقيقة الأمر إلا أن ترى هذا الشاب يحبها ولا يكره أن يقترن بها ، ولكنه يحب قبل كل شىء أن يظفر بمكانة تلائمه فى باريس .

وهل تحب أن أتم هذه المقدمة فأذكر لك هذا الشخص الأخير الذى سنراه فى الفصلين الثالث والرابع ، وهو بلوك مدير مكتب للتخديم يعرف كل شىء ، ويسعى فى كل شىء ، ويقدر على كل شىء وإن

كان فى حقيقة الأمر لا يعرف شيئاً ولا يكاد يقدر على شىء .

هؤلاء هم الأشخاص ، وهم كما ترى ، عاديون لا يمتاز أحدهم بشىء ما ، ولا يمكن أن تكون القصة التى تقع بينهم إلا عادية هادئة لا أثر فيها للانفعال الحاد ولا للضحك العنيف .

* * *

فأما الفصل الأول من هذه القصة فيقع كما قدّمنا فى مدينة من مدن الأقاليم . ونحن إذا رفع الستار فى المكتبة ، وأمامنا مساعد المدير كأنه يرتّب كتباً . على أننا لا نلبث أن نشعر أن هذه المكتبة كغيرها من مكتبات المدن فقيرة كل الفقر ، لا تكاد تشتمل إلا على دائرة المعارف و بعض الكتب أو المجلدات السياسية . وقد دخل خادم مأمور المركز ، يطلب مدير المكتبة ليجيب سيده ، وهو يعلن فى ثرثرة ظريفة أن المأمور مغضب لأن مدير المكتبة قد كتب فى صحيفة المدينة فصلاً سياسيًّا عَضَد فيه مرشحاً فى مجلس الشيوخ معادياً للحكومة وذم فيه مرشح الحكومة وهو قريب المأمور . ولا يكاد يخرج الخادم حتى يأتى مدير المكتبة ، فاذا هو كما قدّمنا فتى ظاهر الرشاقة واللباقة ، ولكنه فى حقيقة الأمر ليس شيئاً لولا أنه شديد الطمع قوى الإرادة . فاذا أُخبر بأن المأمور يدعوه وأنه مغضب منه لم يحفل بذلك ، وإنما أخذ يحدث صاحبه عن الفصل الذى كتبه فى صحيفة « المستقبل » وهاجم فيه قريب المأمور فى قوة وعنف ودافع فيه عن

خصمه دفاعاً شديداً . فاذا سأله صاحبه : فيم هذا الهجوم ؟ أنبأه بأن قريب المأمور هذا قد ذكره بسوء فيما بلغه ، وأنه لا يعرف خصمه ، ولكنه مع ذلك يؤيده ويبذل فى ترشيحه ما يملك من قوة . ويكون بين الرجلين حوار نفهم منه أن أحدهما وهو المدير يتحرّق شوقاً إلى باريس لعله يظفر فيها بما يريد من هذه المكانة العالية ، وأنه واثق بالوصول إلى ما يحب ، فكل شىء يدلّه على ذلك : انظر إلى هذا الجيل الذى يريد أن ينقضى كيف ضعف واضمحل ، وكيف عجز وانحل ، وكيف أخذ الفساد يعمل فيه من كل ناحية ، فلا خُلق ، ولا قوة ، ولا إرادة ، ولا مهارة ، ولا استقامة فى الأعمال . وهذا مأمور المركز : ما قيمته ! ! وماذا عمل وهو يخدم الحكومة منذ خمس عشرة سنة ؟ وهذا المدير أتظنه وصل إلى منصبه لولا أنه أصهر الى سكرتير الوزير ! والأمر كذلك فى جميع طبقات هذا الجيل وفى أنحاء الحياة الاجتماعية كلها : جيل يفنى ، وجيل آخر ينهض . وهذا الجيل الناهض منتصر من غير شك ؛ ففيه حب الحياة وطموح إلى الرقى ، وفيه قوة على الجهاد وصبر على المكروه ، وفيه نبوغ واستعداد للنبوغ . انظر إلى صاحب الصحيفة التى تصدر فى هذه المدينة ، لقد عرض على الفتى المدير ١٥٠ فرنكاً فى الشهر على أن يكتب لصحيفته فصلاً فى كل يوم . فهو إذاً يستطيع أن يعيش خارج المكتبة ، وهو يستطيع أن يُغضب المأمور. هذا كله فى الأقاليم ، فكيف به لو ذهب إلى باريس !

أما صاحبه فهادىء معتدل قانع فيلسوف ، ينصح لرئيسه بالهدوء والدعة والرضا بما هو فيه ، وينصح له بنوع خاص بألا يلتمس فى الحياة إلا هذه السعادة الهادئة العادية . وما له لا يفكر فى هذه الفتاة المعلمة التى تحبه وتتردد على المكتبة من أجله ، وتتمنى أن تكون له زوجاً ! أليس هو يحبها أيضاً ؟ ! بلى ! ! هو يحبها ، ولكنه لا يتعجل هذه السعادة ، وإنما يريد أن يصل إلى الثروة والمكانة قبل أن يفكر فى الزواج .

فأما وقد تحدث الرجلان فى الحب ، فلم يكن بدٌّ لصاحبنا المساعد الفيلسوف من أن يذكر حبه أيضاً ؛ فهو أيضاً يحب ، ولكنه يحب من من غير أمل . يحب امرأة لا يعرفها ولا ينتظر أن يعرفها ، رآها مرة فى باريس وقد كان يمشى الهوينا فى الغابة فإذا هى تنزل من عربتها وإذا منديلها يسقط فيلتقطه هو ويدفعه اليها فتأخذه شاكرة ، وهذا يكفى ليذكى فى قلب صاحبنا للحب جذوة متوقدة . وصاحبنا فيلسوف يحتمل هذه الجذوة وما لها من لذع ، ولكنه يعلن أنه إن رأى هاتين العينين السوداوين مرة أخرى فلن يستطيع أن يضبط نفسه ولن يكون له على حبه سلطان .

وهذه الفتاة المعلمة قد أقبلت تكلف مساعد المكتبة أن يُعدَّ لها جزءاً من « لاروس » لتنظر فيه بعد حين . ولكنها رأت المدير فتتحدث إليه ، ويدعوها هو إلى مكتبه ليظهرها على بعض

الصحف التى وصلت من باريس فتمتنع عليه . فإذا سألها لماذا ؟ أجابته : لأنى إن تبعتك إلى المكتب حاولت أن تقبلنى كما حاولت فى المرة الماضية ، فأمتنع عليك فنتغاضب . وفيم نتغاضب ونحن صديقان ! على أنى لا أكره أن تقبّلنى بل قد أجد فى ذلك سعادة ولكن قبل أن اسمح لك بهذه اللذة ولنفسى بهذه السعادة يجب أن تخطبنى ، ويجب أن أعرف متى نقترن ، ولِمَ لا نقترن ؟

فإذا ذكر لها طمعه فى الثروة والمكانة دهشت وأعلنت إليه أنها راضية بمكانتها ومكانته ، وأنها ترى أنهما يستطيعان أن يعيشا سعيدين ، وأخذت ترغّبه فى الزواج وتذكر له أموراً من شأنها أن تشجّعه عليه ومن هذه الأمور أنها تحبه . ولكنه مصر على الثروة قبل كل شىء ، فتدعه على أن تعود لتنظر فى دائرة المعارف . وما تكاد تخرج حتى يأتى « جونيل » هذا الرجل الغنى الذى يرشح نفسه لمجلس الشيوخ ، يأتى لأنه قرأ الفصل الذى نشره الفتى فى الصحيفة فجاء شاكراً . وما هى أن يرى الفتى ويتحدث إليه حتى يعجب به فيعرض عليه أن يكون سكرتيره ، وأن يرافقه إلى باريس . ولا يحتاج إلى الإلحاح على الفتى فى ذلك فقد قبل الفتى . وما له لا يقبل وهو سيذهب إلى باريس ، وسيعمل فى السياسة ، وسيكون يد هذا الرجل اليمنى حتى يصل إلى مجلس الشيوخ ثم إلى الوزارة . ومن يدرى ! ماذا يجنى هو فى أثناء هذا كله ! على أن صاحبنا الشيخ ينبئه بأنه يخوض غمار

الانتخابات على كره من زوجه فهى لا تحب السياسة ، ولـكنه واثق بالانتصار عليها ، وهو يعلم أن امرأته ستغضب حين تعلم أنه قد اتخذ له سكرتيراً ولـكن غضبها لن يطول فهو يوصى الفتى بالأناة والرفق . أما الفتى فقد قبل كل شىء وهو يترك صاحبه ليكتب الاستقالة . ولا يكاد يخلو إلى نفسه حتى تأتى امرأته ، فإذا هى ، كما قدّمنا ، شديدة السخط على السياسة ، شديدة البغض لاندفاع زوجها فيها . ولا يكاد زوجها ينبئها بأنه اتخذ له سكرتيراً حتى تثور . ولـكن السكرتير قد أقبل وقد نظرت إليه فتحس أنه وقع من قلبها ، وهى تتلقاه متكلفة بعض الفتور ، وتدعوه إلى العشاء متكلفة بعض الفتور أيضاً .

وينصرف الزوجان وتعود الفتاة المعلمة ، فلا تكاد تتحدث الى صاحبها وتعلم باستقالته واعتزامه السفر الى باريس حتى يأخذها الحزن والجزع والاضطراب ، وهو يهدئها ويخطبها ويعدها ، ولـكنها لا تحفل بذلك ولا تكاد تصدق منه شيئاً . وهى تدع صاحبها وتنصرف إلى الـكتاب تريد أن تنظر فيه فلا تستطيع . وأنَّى لها ذلك وقد ملكها الاضطراب فهى لا ترى إلا صاحبها ، ولا تفكر إلا فى سفره . وهى فى ذلك وإذا امرأة تدخل وتسعى فى خفة حتى تصل إليها فتقبّلها ، فاذا التفتت رأت أختها « بوليت » وهى لم ترها منذ سنتين ، منذ انقطعت هى الى التعليم ومضت الأخرى مع أول رجل غنى لقيها . وأختها تنبئها بأنها كانت مسافرة معه الى نيس ، حتى إذا وصلا الى ديجون ذكرت

أختها فقالت له يجب أن يفترق هنا لأرى أختى وسألقاك آخر النهار . فإذا سألت ، أختها من هو ؟ أجابت : هو ! هو الذى تعرفينه ، هو جوستاف ! على أنى سألقاه آخر النهار ، ولم أشأ أن أصطحبه حتى لا أعرّضك لسوء القالة . فإذا سألك عنى أحد فقولى إنى معلمة فى باريس وأنت تذكرين أنى كدت أكون معلمة فى باريس لولا أن وصل جوستاف . كلا ! لم يكن جوستاف ، وإنما كان ادوار . ثم تمضى فى هذا الحديث السريع حتى تسأل أختها عن حالها ، فما أسرع ما تتبين أنها محزونة ! وما أسرع ما تفهم سبب هذا الحزن ، وما أسرع ما يظهر حبها لأختها وحماستها فى الدفاع عنها . وبينما أختها تجذبها للخروج من المكتبة إذ يقبل مدير المكتبة ، فما أسرع ما تعرف هذه المرأة أنه هو الذى تحبه أختها ، فتأخذ فى لومه وتعنيفه وترغيبه عن باريس .

* * *

وإذا كان الفصل الثانى فنحن نراه جالساً إلى المنضدة وفى يده القلم وصاحبه الشيخ يملى عليه بدء منشور انتخابى . ولكن الرجل لا يكاد يقيم الجملة الأولى من المنشور ، فهو يتردد ويضطرب ويستأنف القول ثم يعيده ثم يستأنفه دون أن يستطيع التقدم . فيعرض عليه كاتبه أن يفعلا كما فعلا فى المرة الماضية . فما أسرع ما يقبل مسروراً ، وإذا هو قد جلس إلى المنضدة وأخذ القلم ونهض الكاتب فأخذ يمشى فى الحجرة مملياً ، وإذا الكلام متصل مستقيم ، والجمل يتبع بعضها بعضاً فى غير

تردد ولا اضطراب ، والشيخ راض مبتهج يلعن فى سذاجة أنه لا يحسن الكتابة إلا إذا جلس هو وأخذ القلم ومشى كاتبه وأملى .

وهما فى ذلك وإذا امرأتهُ قد أقبلت ، فإذا رأت ذلك دهشت وأخذها شىء من الضجر لم تحاول قط إخفاءه . ثم تأخذ فى لوم زوجها على السياسة ودخوله فيها ، وتسأله عن حفلة راقصة يريدان إقامتها : أتكون فى الرابع عشر أو الخامس عشر من الشهر ؟ فيتردد ثم يذكر أن بينهُ و بين الناخبين موعداً فى هذين اليومين ولكنه لا يعرف أيهما ، ثم يلتمس كتاب الناخبين إليه فلا يجده فيذهب كاتبهُ لالتماسه . ولا يكاد يخلو إلى امرأته حتى تطلب إليه أن يُقيل هذا الكاتب ، فيعاتبها لأنها تلقى هذا الشاب بفتور بعد أن كانت قد لقيتهُ أول الأمر فى شىء من الظرف واللطف . ولكنها تاح عليه فيأبى . ونفهم من حديثهما ومن إلحاحها أن بينها و بين هذا الفتى حبًّا أو شيئاً يشبه الحب ، وهى تريد ألا تصل إلى خيانة زوجها . ولكن الرجل سليم القلب لا يفكر إلا فى السياسة والانتخاب ومجلس الشيوخ . فإذا أبى عليها ويئست منهُ تركتهُ وجاء الفتى ، وهمَّا باستئناف العمل ، ولكن مُعِين الفتى فى المكتبة قد جاء فتركهما الشيخ على أن يستأنف العمل بعد حين . وما هى إلا أن يتحدث الفتى إلى مساعده القديم حتى نفهم أنهُ قد رأى العينين السوداوين مرة أخرى : رآهما هناك فى المكتبة فى ذلك اليوم المشهود يوم كانت المعلمة تنظر فى الكتاب فجاءت أختها . هو إذاً عاشق

لأخت هذه المعلمة ، وقد كان صادقاً حين أعلن أنهُ لن يملك نفسهُ إن رأى عينيها مرة أخرى . وقد رأى عينيها بل جلس معها إلى مائدة المعلمة ففقد الرشد أو كاد ، واستقال على كل حال وأقبل إلى باريس ولن يفارقها . وهو سيء الحظ ؛ فقد ذهب إلى دار هذه الفتاة واستأذن عليها فتركتهُ ينتظر نحو الساعة ، ثم خرجت ومعها ثلاثة رجال فمرَّت به مسرعة وهى تقول : إذا لقيت أختى فبلِّغها تحيتى . وهو سيء الحظ ؛ فقد التمس العمل فلم يظفر بشيء ، وذهب إلى « بلوك المخدم » و بينهما صلة ، فأبى هذا الرجل أن يلقاه . فلما ألحّ عليه أمره بالعودة إلى الإقليم . وصاحبه الفتى يأمره بمثل هذا ، و يضرب له موعداً بعد ساعات ليطعما معاً على أن يسافر هو بعد العشاء . أما هذا الرجل فيقبل الموعد و يقبل العشاء ولكنهُ يرفض السفر . وقد خرج وجاءت امرأة الشيخ ، فأنبأت الفتى أن زوجها قد خرج يتروض ، وأنها تريد أن تتحدث إليه ، ثم أعلنت إليه فى صراحة أنها قد طلبت إلى زوجها إقالتهُ فرفض . و إذا فهى تطلب إليه أن يُقيل نفسهُ لأنها تحب زوجها ، وتكره أن يعاشرهما ثالث . أما هو فيعدها بالاستقالة والسفر ، ولكنه ينتهز هذه الفرصة التى لن يراها بعدها ليعلن إليها فى صراحة أيضاً أنهُ يحبها حبًّا لا حدّ له ، وأنهُ لو شاء لأظهر لها هذا الحب ، ولكنهُ أراد أن يكون رجلاً شريفاً فكتم حبه ، فأما الآن وسيفارقها فراقاً لا لقاء بعده فلا جناح عليه أن يعلن إليها هذا الحب . فإذا أرادت أن تأخذه

بالصمت مضى فى الحديث وأعلن إليها أنها شجّعته على هـذا الحب . أليست قد اعتمدت على يده مرة فى الملعب و بقيت معتمدة عليها ما استمر التمثيل ! ! أليست قد التصقت به التصاقاً مرة فى العربة يوم عادا إلى البيت منفردين ! ! فلو لم يكن رجلاً شريفاً لانتهز إحدى هاتين الفرصتين وأعلن إليهـا حبه ، ولكنه لم يفعل ، وهو إذ يفارقها لا يؤلمه إلا أنها ليست وفية لزوجها . فإذا أخذت تنكر عليه ذلك أخذ يتّهمها بأنها تحب فلاناً وتداعب فلاناً حتى تضيق به ذرعاً فتعلن إليه أنها لم تخن زوجها ، ولولا حرصها على الوفاء لزوجها لما طلبت إليه الرحيل ، ولكنها تحبه وتخشى إن أقام أن تقع فى الإثم . فإذا سمع هذا فهو سعيد ، وهى أيضاً سعيدة ، وهى لا تتعجله فى السفر بل تطلب إليه البقاء ولكنها قلقة . أما هو فجرىء ! أنظر إليه يسرع إليها يريد أن يأخذها بين ذراعيه ، ولكنها تتحرج وتأبى عليه إلا حباً بريئاً ، ولا تسمح له إلا بقبلة بعينها يضعها بين شعر رأسها لا يتجاوز هذا الشعر. و إنه لفى هذه القبلة إذ يحسان حركة فيفترقان ، و إذا الزوج قد أقبل ، فتلقاه متبسمة ، وتعلن إليه أنهـا قرأت بعض منشوراته الانتخابية فرضيت عنه . وهو يبتهج حين يراها مسرورة راضية . ولكنه لم يُقبل وحده بل أقبل ومعه أحد الناخبين ، فهو يدعو سكرتيره ليتحدثا مع هذا الناخب . وتخلو المرأة إلى نفسها فتجلس مفكرة وفى يدها ورق كأنها تنظر فيه . و بينا هى فى ذلك إذ يُقبل زوجها دون أن تحسه .

فإذا نظر إليها جالسة هكذا راقته فسعى إليها فى خفة ورشاقة حتى يضع شفتيه من شعرها حيث كان الآخر قد وضع شفتيه. أما هى فقد أحست شفتيه فى شعرها فلم تفكر إلا فى صاحبها ، وإذا هى تقول له : فالنتين ! أنت مجنون . . . إن زوجى يستطيع أن يأتى الآن . قدّر أنت وقع هذا الكلام فى نفس الشيخ حين يسمعه .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى مكتب المخدم « بلوك » وأنا أعفيك من وصف هذا المخدم وأعماله وأعوانه . ولكننا نرى فى مكتبه مساعد المكتبة الذى رأيناه فى أول القصة ، وقد أقبل الآن يلتمس عملاً ، والمخدم يأبى أن يلقاه ، حتى إذا ألحّ دفع إليه بعض النقد وصرفه وأخذ فى عمله . وإذا « كلوتيلد » زوج الشيخ قد أقبلت تستأذن عليه فإذا أذن لها أنبأته بأنها تلتمس شاباً يقال له « فالنتين بريدو » وقد جاءت تستعين به على أن تلقاه وقد افتقدته منذ شهرين ، فيعدها خيراً ويطلب اليها صورته الفتوغرافية . فتنصرف لتأتى بها ، ويأتى مكانها « فالنتين بريدو » نفسه يطلب عملاً . فاذا سأله المخدّم عما يحسن قال إنه نال البكالوريا ، ولكن البكالوريا لا تفيد شيئاً ! وإن عند هذا المخدّم من العمال والأعوان أشخاصاً نالوا البكالوريا فى العلوم والآداب، ولكن باريس قد ضاقت بهم ، وإنه ليعرف قوماً معهم الليسانس فى الحقوق وهم يقودون عربات النقل ، ثم أخذ يبحث فى دفاتره فلم يجد

ما يعرضه على هذا الشاب إلا عمل خادم عند رجل يحزم الأمتعة ، فيأبى الشاب . ولكنه قد وقع من نفس المخدّم وأعجبه ، فأخذ المخدم يعرض عليه العمل عنده ويطلب إليه أن يبدأ فيبحث عن فتى يقال له « فالنتين بريدو » . فإذا سمع الفتى اسمه دهش وقال : غداً سآتيك به آخر النهار . وقد تركه المخدم لبعض عمله وأقبلت « كلوتيلد » فالتقيا وتحدثا واطمأن كلاهما إلى صاحبه واستوثق كلاهما من حب صاحبه وكان بينهما الميعاد . ثم ينصرفان ويعود المخدم تتبعه بوليت وأختها المعلمة . ونفهم أن هذه الفتاة قد ضاقت بحياة الأقاليم ذرعاً بعد أن سافر خطيبها إلى باريس ، فاعتزمت أن تترك التعليم وأن تعيش فى باريس . وأقبلت إلى أختها فلقيت عندها الشبان الأغنياء ، وأخذوا يعرضون عليها حياة اللهو فترفض ، وهى الآن تلتمس عملاً شريفاً . فأما العلوم التى تحسنها فالرياضة والتاريخ الطبيعى والرسم والموسيقى . ولكن هذا كله لا يغنى عنها شيئاً ، وكل ما يستطيع الرجل أن يعرض عليها إنما هو العمل فى مطعم حقير ، فتتردد ثم تقبل وتهمان بالانصراف . ولكن أختها قد ألقت فى أذن المخدم أنها لا ترضى بهذه الحياة لأختها ، وأنها تعلم حق العلم أنها ما زالت تحب ذلك الفتى الذى عشقته هناك حيث كانت معلمة ، وأن هذا الفتى فى باريس ، وأنها تريد منه أن يلتمسه واسمه « فالنتين بريدو » . وتخرجان ، ويأتى جونيل يلتمس عند هذا المخدم سكرتيراً . وإنهما لفى الحديث إذ يهمس الخادم فى أذن سيده أن الفتى

الذى استخدمه اليوم قد عاد يريد أن يخبره ببعض الأمر . وهنا يتنبه المخدم إلى أن هذا الفتى يستطيع أن يكون سكرتيراً لجونيل ، فيعلن إلى جونيل أنه قد ظفر له بما يريد ، ثم يأمر بإدخال الفتى فإذا دخل ورآه جونيل أخذته ثورة وغضب وصاح : هذا فالنتين بريدو ! هذا هو السكرتير الذى أقصيته ! ثم انصرف لا يلوى على شىء .

* * *

فإذا كان الفصل الرابع فنحن فى فندق حقير أو كالحقير حيث يقيم « فالنتين بريدو » وقد قبل أن يعمل عند حازم الأمتعة ليعيش . وقد اتصلت الرسائل بينه وبين « كلوتيد » وقد وعدته أن تزوره اليوم ، فهيأ غرفته وزينها بالزهر ووضع فيها ألواناً من الحلوى وخرج لبعض أمره . وأقبل جونيل ومعه المخدم يلتمسانه . ونفهم من حديثهما أن جونيل قد ظفر فى الانتخاب وأصبح شيخاً . وهو يشعر بأنه مدين بهذا الفوز لهذا الشاب الذى رشحه وأيده وأعانه حتى بلغ ما بلغ من الفوز . وهو رجل وفىٌّ خَيِّرٌ يريد أن يكافىء هذا الشاب على حسن بلائه عنده ، ولكن غياب الشاب قد طال ، فينصرف الشيخ على أن يعود . وقد أقبل الشاب بعد ذلك فيلقى مساعده القديم قد ساءت حاله إلى حد منكر ، وقد عاد إلى فلسفته الأولى واعتزم العودة إلى الإقليم . ولكن صاحبه يشجعه على البقاء فى باريس ، ويرى أن الحياة جهاد ، وأنه يجد لذة لا تعدلها لذة فيما يلقى من الألم فى عمله الجديد وما يستلزمه من

حمل الأثقال . . . وأى عظماء الرجال لم يشق فى أول حياته ! وهو كذلك إذ تقبل « بوليت » . فاذا خلت اليه لامته وأنبأته أن أختها قد تركت التعليم ، وأنها قد أقبلت الى باريس ، وهى الآن تعمل فى معمل حقير ، وهى واقعة فى الإثم لا محالة اذا مضى فى قطيعتها . فيذكى هذا الحديث فى نفسه جذوة الحب القديم وكأنه كان نسيه ، فأما الآن وقد ذكره فقد ملأ هذا الحب قلبه فجأة ، وإذا هو يطلب إلى « بوليت » أن تشجع أختها وتدعوها إلى الصبر والاحتمال ، فما زال يحبها وما زال حريصاً على أن يتخذها له زوجاً . أما هى فقد عرفت أنه ما زال محباً ، واكتفت بذلك وانصرفت

وتقبل « كلوتيلد » لميعادها ، وهى مضطربة مروعة ، فهى مقبلة على الإثم وخيانة زوجها ، وهى مقبلة فى هذا الفندق الحقير وفى هذا الحى الذى لا عهد لها به . وبينا هى فى روعها واضطرابها إذا صاحبها فى اضطراب آخر ليس أقل من اضطرابها ؛ فقد ذكر المعلمة وحبها البرىء وزواجهما ، وتبين أنه لا يحب هذه المرأة ، وإنما هى فتنة عرضت له ثم انجلت غوايتها عنه قبل أن يتورط فيها . هو إذاً على بصيرة من أمره ، والمرأة على بصيرة من أمرها أيضاً . وانظر إليهما لا يكادان يبتدئان الحديث حتى تقع بينهما الخصومة : عرّض بزوجها فغضبت له وأخذت تحمده وتذود عنه وتفخر بفوزه فى الانتخاب . وما هى إلا أن يحسّا جميعاً أن ليس بينهما حب ، وانما هى فتنة قد خدعتهما ؛ واذاً فليتصالحا

وليفترقا صديقين لا شر بينهما ولا إثم ولا ريبة . وهما يفعلان وهى تنصرف ، و إذا المعلمة قد أقبلت مبتهجة ، ولكنها لم تكد تدخل الغرفة وترى هذه المرأة منصرفة منها حتى عاودها اليأس . كانت أختها قد أنبأتها أن الفتى ما زال لها محباً ، فأسرعت إليه مستعدة للتضحية والجهاد معاً . ولكنها ما كادت تصل حتى رأت امرأة تخرج من عنده ورأت طاقات الزهر وألوان الحلوى . . . فهى ساخطة ثائرة مزدرية لنفسها تضحك وتبكى فى وقت واحد ، وهو يستعطفها ويترضاها ويبسط لها الأمر على جليته فتصدقه أو تكاد تصدقه . وهما فى هذا الحديث إذ يقبل « جونيل » فيصافح الفتى ويعلن إليه أنه قد فاز ، وأنه مدين له بهذا الفوز ، وأنه قد جاء يعرب له عن حسن بلائه ويدفع إليه ورقة هى كتاب تعيينه مأموراً لأحد المراكز . يقع هذا فى سرعة ، ولكنه لا يخلب الفتى ولا يطير بلبه ، وانما يتقبل الفتى هذا كله هادئاً ويقول لإحدى جاراته : بعد قليل سأكون مديراً ثم عضواً مكانه فى مجلس الشيوخ .

فبراير سنة ١٩٢٧

الفؤاد المقسّم

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « لوسيان بينار »

هى قصة جديدة شهدها جمهور الباريسيين فى بيت موليير آخر العام الماضى . ولعلها خير ما ظهر للناس فى هذا الفصل من فصول التمثيل . وآية ذلك أنها ظهرت لأول مرة فى بيت موليير (الكوميدى فرنسيز) ولم تحتج إلى أن تتخذ إليه الطرق المعوجة أو المستقيمة التى تتخذها قصص أخرى فتظهر فى ملاعب مختلفة ولا تصل إلى بيت موليير حتى يمضى عليها زمن طويل أو قصير .

وأنت لا تحتاج إلى كثير من التفكير ، بل لا تحتاج الى شىء من التفكير إذا قرأت هذه القصة لتشعر شعوراً قوياً واضحاً بأنها خليقة ببيت موليير ؛ ففيها كل ما يلائم هذا البيت من شدة الأَسْر وقوة الفكر ، وهذا الجدّ الذى تلذه دون أن يثقل عليك والذى تمتاز به الآثار الفرنسية القيمة . ولعل من الحق أيضاً أن ألاحظ أنى لم أقرأ فى هذه الأعوام الأخيرة قصة حديثة أحدثت فى نفسى من الأثر ما أحدثته هذه القصة ، لا أستثنى إلا ما يكتبه « فرانسوا دى كوريل » من حين إلى حين .

فلست أقول شيئاً جديداً إن قلت إن النقاد الفرنسيين يلاحظون أن فنّ التمثيل قد أصابه شيء من الفتور غير قليل فى هذه الأيام ؛ فقلما تجد فى عشرات القصص التى ينتجها الكتاب فى كل عام بل كل فصل قصة تملك عليك عواطفك ، وتأخذ عليك طرق الحياة والتفكير ، وتُكرهك على أن تقف عليها وحدها حياتك العقلية والشعرية أثناء قراءتها فى مكتبك أو مشاهدتها فى الملعب ، إنما هى قصص سهلة يسيرة ، فيها عبث ولهو أو فيها تفكير غير متقن ، وحوار خفيف لذيذ يمس الموضاعات فى غير إثقال ولا أناة ولا اعتصار لخلاصتها . فأنت تقرأ أو تشهد هذه القصص ، وأنت فى تجد هذا شيئاً من اللهو والفكاهة أو تحتاج إلى شيء من التفكير لا تلبث أن تنصرف عنه متى انصرفت عن القصة . وأنت لا تكاد تنصرف عنها حتى تنسى موضوعها وحوارها وأشخاصها ، وحتى ليحدثك فى أمرها محدّث بعد أن يمضى على ذلك شهر أو بعض شهر فإذا أنت لا تكاد تذكر فيها شيئاً . فأما هذه القصص التى تقرؤها فإذا أنت تحفظ بعض حوارها حفظاً ، و إذا أشخاصها كلهم أو بعضهم قد ارتسموا فى نفسك ارتساماً ، فأنت تراهم يقظان ، وأنت تتوهمهم نائماً ، و إذا موضوعها قد نضب أمام عقلك نصباً ، وأقسم لا يزول ولا ينتقل حتى تفكر فيه تفكيراً متصلاً وحتى تجد له حلاً يلائم عقلك وهواك . هذه القصص قد بعد العهد بها منذ مات « بول هرفيو » وانصرف كبار الكتاب إلى مجدهم يلهون به و يستمتعون

بثمراته ، كما يلهو إله أرستطاليس لأنه لا يعلم إلا نفسه ولا يُعْجَب إلا بنفسه . حتى بعض الكتاب الذين عرفوا قبل الحرب بالقوة والأيْد وشدة التأثير فى نفوس النظارة والقراء .

والذين لم ينصرفوا الى مجدهم و إنما ظلوا عمّالاً لفن التمثيل يجدّون فيه بعد الحرب كما كانوا يجدّون قبل الحرب وأثناءها ، قد أصابهم الضعف وأدركهم الفتور . فأنت تقرأ ما يكتبون الآن فلا تحس ما كنت تحس من قبل ، بل أنت تنكر هؤلاء الكتاب إنكاراً و إن كان النقاد قد مهّدوا لقصصهم بالفصول الطوال ملؤها الثناء والتقريظ اللذان لا حدّ لهما . ويكفى أن ننظر الى ما يكتبه « برنستين » الآن وما كان يكتبه قبل الحرب لنقتنع بأن هذه الظاهرة حقيقة لا بد من ملاحظتها والتماس أسبابها للذين يعنون بهذا الفن من فنون الأدب الفرنسى . ولكنى لن أضيع وقتك ووقتى فى التماس العلل لها الفتور الذى طرأ على كتاب التمثيل ؛ فإن هـذا الفتور ليس مقصوراً على التمثيل وحده و إنما هو يتناول الأدب الفرنسى كله بعد الحرب ، ، ويجب أن تُلْتَمس علله فى الحرب نفسها وما تركت فى نفس هذا الجيل من أثر . إنما أردت أن ألاحظ أن هذه القصة التى أعنى بها اليوم تمتاز من هذه القصص الكثيرة التى تظهر وتختفى من ملاهى باريس دون أن تترك أثراً قويًّا أو ضعيفاً . هذه القصة خليقة بالبقاء وستبقى وما أرى إلا أنها ستعمر طويلاً لأنها — كما قلت — قد جمعت هذه الخصال التى تمتاز بها الآثار الأدبية الفرنسية القيمة .

ولننظر قبل كل شىء الى موضوع القصة ؛ فليس هو من هذه الموضوعات الضخمة الفخمة التى تخلبك لما لها من ضخامة وعظم شأن . وليس هو من هذه الموضوعات النفيسة الدقيقة التى تسرف فى الدقة حتى لا يلاحظها إلا علماء النفس والذين وقفوا أنفسهم على تحليل ما لبعض الناس من ألوان العواطف والشعور الخاصة التى تدرس فى المستشفيات . إنما هو موضوع عادىّ فى نفسه يراه كل إنسان ويحسه ويشعر بآثاره ، لا يحتاج من ذلك إلا إلى حظ عادى من الذكاء والملاحظة ودقة الحس . وأى إنسان لا يعرف أن كل امرأة ، مهما تكن مقسمة النفس بين أسرتها الجديدة وأسرتها القديمة . أى الناس لا يعرف أن كل امرأة تتعرض لهذه الأزمة أزمة الخصومة بين حياتها الزوجية وحياتها المنزلية الأولى ! ! ثم أى الناس لا يعرف أن كل أسرة تتأسس فهى إنما تتأسس على الأنقاض ، وهى إنما تقطع شيئاً كان متصلا لتصل شيئاً كان مقطوعاً . فالفتاة حين تدخل فى أسرتها الجديدة تقطع الصلة بين أبويها قطعاً صريحاً أو غير صريح ، وتنشىء صلة جديدة مع زوجها ، وهذه الصلة يقويها الحب إن كان هناك حب ، ثم تقويها الحياة اليومية ثم يقويها الولد يوم يأتى الولد . وقد أرادت الطبيعة الإنسانية أن يكون الحب والمنفعة المشتركة بين الزوجين ، والولد وضعفه وحاجته الى التربية والتعليم ، ثم الأثرة التى فطرنا عليها ، عناصر من شأنها أن تقوى الصلة الجديدة ، وتهوّن على الرجل والمرأة احتمال « عملية البتر »

التى يحدثها الزواج بينهما و بين أبو يهما . ولكن نفوس الناس جميعاً ليست مستوية الحظ من هذا الاحتمال ، وظروف الناس جميعاً ليست متشابهة ؛ فقد يوجد الحب ويكون من القوة والشدة بحيث يلهى الزوجين عن قديمهما و يفنيهما فى الجديد . وقد يكون هذا الحب قويًّا شديد التأثير ، ولكنه يصادف مزاجاً قويًّا وفيًّا يستطيع أن يتسع للقديم والجديد ، وأن يزعم الوفاء للأسرة والزوج . وقد لا يوجد الحب أصلاً ، فيظل الزوجان متأثرين بقديمهما وتكون الخصومة بين هذا القديم و بين المنفعة الجديدة التى تستتبعها الحياة الزوجية .

ونحن لم نفكر إلى الآن فى الزوجين . فإذا فكرنا فى أسرتيهما فسنرى أن هاتين الأسرتين لا تقبلان فى رضا واطمئنان هـذه القطيعة التى يحدثها الزواج بينهما و بين أبنائهما . فأما أسرة الزوج فساخطة أشد السخط ، متألمة أشد الألم ، ذاكرة ما بذلت من جهد وما احتملت من تضحية فى تربية ابنهـا وتنشيئه ، حتى إذا استقام له كل شىء لم يجزِ أبويه إلا بالعقوق ، و إذا هو يؤثر عليهما امرأته ، و إذا هو لا يحس أو لا يكاد يحس ما بينه و بينهما من صلة وما يعطفهما عليه من عاطفة . وأما أسرة الزوجة فساخطة أشد السخط على هذا الزواج نفسه ، لأنه قد أخذ ابنتها من ناحية فقطع الصلة بين الأبوين و بين هـذه الفتاة التى بذلا فى سبيلها ما بذلا من جهد ، واحتملا فى سبيلها ما احتملا من تضحية . ثم هو لا يقطع هـذه الصلة فحسب ، ولكنه لا يزال يحب

أسرته و يعطف على أمه ، و إذاً فهو لا يحب امرأته كما ينبغى ! و إذاً فهو متصل بأسرته القديمة أكثر مما هو متصل بأسرته الجديدة !

كل هذه المعانى معروفة شائعة يحسها الناس جميعاً . وهى من الآلام الطبيعية التى تقوم عليها حياتنا الاجتماعية مهما تختلف الأزمنة والأمكنة . وقد يكون من ألذ المباحث الأدبية التماس ما تركت هذه الخصومة بين الأسرة الجديدة والأسرة القديمة من الآثار الأدبيـة شعراً ونثراً فى مختلف اللغات .

والمعروف أن المرأة أشد اتصالاً بأسرتها وأكثر وفاءً لأبويها وأحفظ للمودة من الرجل ، وأنها فى الوقت نفسه شديدة الغيرة من أسرة زوجها ، تخاصم أمه خصاماً شديداً ، وما تزال جادة فى هذا الخصام حتى تنتهى إلى الفوز وتظفر لأسرتها الجديدة بالاستقلال . ولكنهـا لا تحاول أو لا تكاد تحاول تحقيق هذا الاستقلال بالقياس إلى أسرتها هى ، فالصلة بينها و بين أبويها قوية والمودة متصلة ، وهى تظهرها من أمرها على كل شىء وتستشيرها فى كل شىء . وزوجها يرضى حيناً و يسخط حيناً ، و يظهر الغفلة حيناً و ينتهى دائماً إلى الإذعان .

وقد اختار كاتبنا من كل هذه المعانى ومن كل هؤلاء الأشخاص المنبثين فى الأرض كلها طائفة ضيقة صغيرة ، عرضها علينا فى قوة ومتانة ودقة تفكير وشىء من التعقيد جديد ما كنا ننتظره نحن ، ولكنه رفع القصة من مستوى القصص العادية ، كما يقولون ، إلى مستوى القصص

الممتاز بدقة البحث عن عواطف النفس وأهوائها . ذلك أن الكاتب محا أسرة الزوج محواً تاماً . فحن لا نعرف أباه ولا أمه ، وإنما نعرفه هو وحده ، ونعرفه قوياً له من الإرادة حظ عظيم جداً ، شديد السلطان على نفسه ، راغب فى التسلط على غيره ، موفّق فى ذلك توفيقاً عظيماً ، وهو فى الوقت نفسه هادئ المزاج حادّ العاطفة ، هادئ فى حياته العادية قلما يظهر عليه الاضطراب أو الغضب . ولكنه حادّ العاطفة . يحب فلا يستطيع أن ينظم حبه ولا أن يضبطه . ويريد فلا يستطيع أن يضعف إرادته ويحولها عن وجهها . وتقع الخصومة بين حبه وإرادته فيندفع فى الحب إلى أقصاه ، وفى الإرادة إلى أقصاها . ولا يستطيع أن يغلّب أحدهما على الآخر ، فيظل موضوع النزاع العنيف بينهما ، ولولا أن تعنى الظروف بإنقاذه لذهب ضحية هذا النزاع . وهو إلى هذا كله عالم طبيب يعنى بطبه عناية العلماء فى المعمل منصرف إلى تجاربه ، محاول أن يستكشف من هذا العلم ما يغيّر وجه البحث عنه وطرق العلاج فيه . وهو قوىّ فى علمه قوته فى حبه وفى إرادته ، فهو عبد لهذه الأشياء الثلاثة : الحب ، والعلم ، والإرادة . هذا الزوج هو « بيير ريجو » .

أما امرأته « فريدريك » فهى فى السادسة والعشرين من عمرها ، جميلة خلابة ككل نساء القصص ، ولكنها قوية الإرادة أيضاً ، شديدة الكبرياء ، إذا همت فليس ما يصرفها عن همها مهما تكن النتائج . وهى محبة قوية الحب ، ليست أقل حباً من زوجها كما أنها ليست أقل إرادة

منه . ولكن إرادتها فيما يظهر أقوى من حبها ، فهى تستطيع أن تسلو ، بل هى تستطيع أن تألم ، وتألم فى غير حدّ . ولكن حبّها هذا مقسّم ، فهى لا تحب زوجها وحده ، وإنما تحب أباها مع زوجها . ولنلاحظ أنها فقدت أمها وهى حديثة السن ، فعنى أبوها بتربيتها عناية مضاعفة . ولنلاحظ أيضاً أن أباها هذا شخص لا كالأشخاص : له حظ من قوة وبأس ، هو طبيب عالم كصهره ، ولكنه متقدم فى السن إلى حد ما ، يدانى الخمسين ، وهو على ذلك قوى له حظ من شباب ، حلو الحديث فتان للنساء ، مفتون بهن مقرّب إليهن يتهالكن عليه ويتفانين فى حبه . وهو قد عنى بابنته عناية شديدة ؛ فأحبته ابنته حباً شديداً ، وأحبها هو كذلك . ولكن فى هذا الحب شيئاً غريباً ؛ فهو لا يشبه ما يكون بين الأب وابنته من البر والرحمة ، وإنما يشبه ما يكون بين الزوجين من الحنان والفتنة . وآية ذلك أنك تبدأ فى قراءة القصة وتمضى فى الحوار بين الأب وابنته فلا تشك فى أنه حوار بين زوجين أو بين عاشقين ، ويأخذك الدهش حين تستكشف بعد صحف من القصة أنهما أب وابنته .

فأنت ترى موضع الخصومة ، وأنت تحس منذ الآن أن هذه الخصومة ستكون عنيفة لأن المختصمين جميعاً أقوياء ، ولأنهم جميعاً يحبون فيحسنون الحب ، ويريدون فيحسنون الإرادة . وأنت ترى أن الأمر لو وقف عند ما نعرف من هؤلاء الأشخاص لما أمكن أن تنحل الخصومة

بينهم إلا بشر وتضحية ، فيجب أن يُضَحَّى بالأب فى سبيل الزوجين ، أو بالزوج فى سبيل الأب وابنته ، أو بالقوم جميعاً .

ولكنى لم أكشف لك من شخصية الأب إلاّ عن وجه واحد . وهناك وجه آخر يؤثر فى حياة هؤلاء المختصمين وإن كان شراً فى نفسه وفى ظاهر الأمر بنوع خاص . هـذا الرجل أثِرٌ مسرف فى الأَثَرة ، يدفعه حبه لنفسه إلى الكذب والتضليل واقتراف ما يشبه الإثم ، وهو مضطر إلى ذلك اضطراراً ، فقد رأيت أنه يحب ابنته هذا الحب الغريب ، وهو يلهو مع طائفة من النساء ، ولكنه يحب امرأة أخرى حباً طبيعياً حاداً ، كما تحب ابنته زوجها وكما يحب هذا الزوج امرأته . وهذا الحب الطارئ هو الذى ينتهى بالقصة إلى أرقى منازل العنف ، وهو الذى ينحدر بها ، ولكن فى رفق ولين ودعة ، إلى حيث الرضا والطمأنينة واستئناف الحيـاة الهادئة فى لذة وابتسام ، وشىء مع ذلك من المرارة غير قليل .

وفى القصة ، الى هؤلاء الأشخاص ، أشخاص آخرون ، نذكر منهم « جاستون » أخا « فريدريك » ، طالب مسرف فى لهوه وعبثه ، يلهو ويلهى النظارة بمزاحه وسخريته وجهله .

ونذكر منهم « كودريه » جدّ « فريدريك » لأنه شيخ ، رقيق ، سمح ، رزين ، حسن النصح ، قيّم المشورة ، محب لحفيدته وزوجها حبًّا مؤثراً حقًّا .

ونذكر منهم هـذه الدوقة التى نراها فى الفصل الأول ، جميلة ، فتّانة ، لعوباً ، تعبث بأبى « فريدريك » وتعبث بنفسها أيضاً ، وتعنى بما يمكن وما لا يمكن ، لأنها تحب الأستاذ الطبيب وتريد أن تلهو معه .

ثم نذكر آخر الأمر « مسز ونتون » هذه الأميركية ذات الثروة الضخمة والجمال الرائع والإرادة القوية والحب العنيف أيضاً . كان زوجها عالماً مخترعاً ، وكان قد ضيّف « جان لوى مارنييه » بن « فريدريك » فأحبته وأحبها ، ثم مات زوجها وأقبلت الى باريس تريد أن تتزوج حبيبها ، فيصطدم حبها بهـذه الخصومة بين الأب والزوج والزوجة .

فأنت ترى إلى هذه القصة كيف اختار الكاتب موضوعها من هذه الموضوعات الشائعة المبتذلة ، ثم لم يكد يخلق أشخاصها ويبعث فيهم الحياة وينفخ فيهم من روحه حتى صورهم أقوياء ممتازين ، لهم من العواطف والأهواء ما للناس جميعاً ، ولكن مع شئ من الدقة والتعقيد ليس للناس جميعاً . وما هى إلا أن يقف هؤلاء الأشخاص بعضهم لبعض حتى ترتفع القصة وتقوى ، وتحس أنك فى بيئة ممتازة من كل ناحية ، دون أن يمنعك هذا الحس أن تجد نفسك وعواطفك وحياتك ممثلة فى هذه القصة من كل الوجوه أو من بعضها .

والآن وقد صورت لك هؤلاء الأشخاص تصويراً مقارباً أستطيع أن أوجز لك خلاصة هـذه القصة . ولكنى ألفتك منذ الآن إلى

أن هذا التلخيص لن يغنى عنك شيئاً والى أنك لن تجد اللذة والمنفعة الا فى قراءة القصة نفسها .

* * *

نحن فى بيت «جان لوى مارنييه» أول الليل. ينصرف القوم عن المائدة وقد أخذوا يأتون الى غرفة الاستقبال ، وكان أول القادمين «كودريه» وحفيده «جاستون» . ونحن نرى الشاب يعنى بالشيخ عناية لا تخلو من غلو ، ويمهّد له ويقدّم اليه البيبة ، ويتلطف له فى الحديث . ويحس الشيخ أن هذه العناية لم يرد بها وجه الله ، وما هى الا لحظة حتى نفهم أن الشاب فى حاجة الى الفرنكات لأنه يريد أن يشترى سيارة .

ثم يأتى «جان لوى» وقد قدّم ذراعه الى ابنته ، فلا يكادون يتحدثون حتى يضيق الفتى ذرعاً بأبيه الذى أخذ يسأله فى الألمانية ، وبأخته التى أخذت تظهر جهله بهذه اللغة ، فينتحى بجده الشيخ ناحية ليلعب النرد . ونرى الأب يجلس الى ابنته ويتحدثان ، ونحن نرى الفتاة تعنى بأبيها ولكنها عناية لا تخلو من دعابة وفكاهة . والرجل يجيب على هذه الدعابة والفكاهة بمثلهما ، ثم لا يلبث هذا العبث أن يستحيل الى جدّ . فقد ظهرت غيرة المرأة ، ووقف الرجل موقف الدفاع عن نفسه . ذلك أن الخادم قد حمل اليه رسالة ، تقرؤها المرأة فاذا هى من الدوقة التى أشرت إليها آنفاً . وهى تنبئ الأستاذ بأنها ستزوره بعد العشاء لتقص عليه أخباراً مهمة متصلة بانتخابه فى المجمع العلمى . فلا تكاد «فريدريك» تقرأ هذه

الرسالة حتى تثور وتأخذها غيرة حادة ، وتحصى للرجل سيئاته وآثامه ولهوه ، وتعلن أنها قد صفحت عن هذا كله لأنه لم يكن شيئاً يذكر ، إنما كان لهو ساعة أو بعض ساعة ، وأنها لم تخف حقاً إلا مرة واحدة حين ذهب الأستاذ الى أحد المؤتمرات فى أمريكا فأحب « مسز ونتون » امرأة مضيفه ، فى هذه المرة خافت حقا ، وأحست أن الأستاذ سيفلت من يدها . وهى ثائرة ، فقد كانت تقدّر أنها ستنفق مع الأستاذ شطراً من الليل فى خلوة لذيذة ينصرفان فيها الى العمل ، تقرأ هى المسوَدات ويصحح الأستاذ . وانظر اليها كيف أجلست الأستاذ فى مجلس حسن ، وجلست هى بين يديه فى شئ من الظَّرْف والدعابة . ولكن هذه هى الدوقة تنذر بمقدمها ! . . . لن يكون هذا . وهى تأمر الخادم بأن يسرع الى التليفون فينبىء الدوقة بأن الأستاذ مريض لا يستطيع أن يلقى أحداً ، والأستاذ يعارض ويمانع ، ولكنه مضطر الى الإذعان . على أن الخادم لا يلبث أن يعود ويعلن فى أسف أن الدوقة وزوجها الشيخ قد خرجا من قصرهما وهما فى الطريق . فانظر الى ثورة المرأة وحدتها وانظر الى الأستاذ يهدئها ويتوسل اليها فى ألا تسيىء استقبال الدوقة . وهذه هى الدوقة تقبل مسرعة ومعها زوجها ، فلا تكاد ترى الأستاذ حتى تتحدث معه بلسانين : لسان يسمعه الناس جميعاً وفيه أحاديث عادية ، ولسان آخر يسمعه الأستاذ وحده وفيه مودة وتعريض بمواعيده . و« فريدويك » تتحدث إلى الأستاذ بلسانين أيضاً : لسان عادى يسمعه

الناس ، ولسان آخر فيه نذير وتحذير . وانظر إلى هاتين المرأتين تتقارضان جملاً ظاهرها فيه الود والتحية وباطنها فيه البغض والعداء . وقد أقبل « بيير ريجو » زوج « فريدريك » فتنتهز الدوقة هذه الفرصة وتطلب إلى الأستاذ أن يرافقها إلى « البيانو » لتلعب هى ويغنى هو ، فهى تحب صوته الرخيم ولا سيما حين يغنى القطعة الروسية . ويحاول الأستاذ أن يعتذر لأن ابنته تلح عليه فى الاعتذار من طرف خفىّ ، ولكنه لا يفلح ، فهو يذهب إذاً إلى البيانو حيث يُسْمَع غناؤه من بعد . وفى هذه اللحظة تخلو « فريدريك » إلى زوجها ، فلا يكادان يتحدثان حتى نحس أن « فريدريك » مشغولة بأبيها وصاحبته ، وأن زوجها يرى ذلك فيغتم له ويثور ، ولكنه يكظم غمه وثورته ، ويلح على امرأته فى أن تتلطف بالدوقة ولا تظهر هذه الغيرة المنكرة . وامرأته منصرفة عنه ، ماضية فى الإعجاب بصوت أبيها والسخط على هذه المرأة ، حتى يعود الأستاذ ومعه صاحبته ، فتَلْتَقِفه ابنته التقافاً ، وتمضى الدوقة إلى بيير تتحدث إليه ، وتنظر معه طائفة من الصور فى دعابة وتلطف . و« فريدريك » منصرفة إلى أبيها تلومه وتداعبه ، وتلاحظ فى الوقت نفسه زوجها والدوقة ، وتلفت أباها إلى هذه المرأة التى تداعب زوجها وتعبث بشعرها فى وجهه . والأستاذ مضطرب بين ابنته وصاحبته . ثم تنهض الدوقة للانصراف ، ويخرج الأستاذ وابنته لتشييعها ، ويخلو « بيير » إلى « كودريه » . فنفهم من حديثهما أنه ساخط على حَمِيه

شديد الغيرة منه ، وأنه سيكون له معه شأن بعد حين . فاذا عاد الأستاذ وابنته تعجّل « بيير » فعرض عليهما موضوع هذا الشأن الذى يريد أن يتحدث فيه ، وهو أنه ضيق الذرع بباريس . وبمعاملها ، وقد سنحت له فرصة تمكّنه من العمل الجدىّ المنتج بعيداً عن باريس . ذلك أن غنية أميركية هى « مسز ونتون » قد أنشأت فى أحد الأقاليم مستشفى عظيماً للسل ، وفيه معامل حسنة النظام غنية بالأدوات ، وقد عُرِض عليه أن يعمل فى هذا المستشفى فقبل . ونحن نفهم أن صاحبنا إنما يريد أن يترك باريس حبا فى العلم طبعاً ، ولكن ليستأثر بامرأته بنوع خاص ، فلا يكاد يعرض هذا الأمر حتى يثور الأستاذ ثورة عنيفة ويعلن أن ابنته لن تترك باريس . وتمالئه ابنته فى هذا ، وتسلك لإقناع زوجها طرقاً مختلفة ، فيها اللين والشدة ، وفيها الاستعطاف والإنذار فلا تفلح ، ويوشك الأمر أن يفسد بين القوم لولا توسط الشيخ ، ولولا أن « بيير » قد نهض للانصراف . فاذا خلا الشيخ إلى صهره حاول إقناعه وحمله على أن يدع ابنته تترك باريس فلا يوفّق . وهنا حوار بديع بين الشيخ وصهره فى الصلة بين الآباء والأبناء ، وما يجب على الآباء من التضحية بأنفسهم لأنهم لا يملكون أبناءهم ، ولا ينشئونهم للذة والمتاع ، وإنما ينشئونهم لأنفسهم قبل كل شىء

* * *

فإذا كان الفصل الثانى فقد مضت ساعات قليلة على ما كان فى الفصل الأول . ونحن فى بيت « بيير » فى غرفة النوم . وقد أوت

« فريدريك » إلى سريرها والخادم تحثها فتنبئها بأن سيدها يعمل فى مكتبه ، وقد أمر فأعد له خادمه مضجعاً فى المكتب فيقع هذا الحديث من نفس « فريدريك » موقعاً تحس أنه مؤلم . وانظر إليها قد صرفت الخادم ولكنها لا تستطيع النوم ؛ فهى قلقة مضطربة تتسمع حركات زوجها فى مكتبه . ولهذه اليقظة المضطربة من هذه الظلمة المدلهمة فى نفسها أثر قوى ، ولكن باباً يفتح ونوراً يغمر الغرفة ، وقد ظهر الزوج فتتكلّف صاحبتنا النوم ، وكأنها قد استيقظت فزعة . ولكن زوجها يعلم أنها لم تنم . وقد أقبل يعتذر إليها ويتلطف بها ويستغفر مما قدّم ، واطمأنت هى إلى ذلك ، وصفا ما بين الزوجين الحبيبين وأطفىء من النور أكثره ، ولم يبق منه إلا شىء ضئيل يلائم نجوى المحبين آخر الليل ، وما يكون بينهما من عتاب واستعطاف ثم رضا واطمئنان . وهما فى ذلك وهو يشكو غيرته من أبيها ، وهى تدافعه فى لطف ورقة . ولكن التليفون يدق فيحاول أن يمنعها من النهوض له فلا يوفق ، وقد نهضت إلى التليفون فإذا أبوها قد عاد ، وهو يسأل عنها ويلح عليها فى ألا تسافر مع زوجها ، وهى تجيبه بحديث متقطع يظهر فيه أنها مقسمة بين الرجلين ، تحب زوجها وتريد أن ترضيه ، وتحب أباها وتكره أن تفارقه ، حتى إذا فرغ هذا الحديث بعد مشقة عادت إلى زوجها تريد أن ترضيه وتصل معه إلى اتفاق معقول . ولكن لم يبق إلى ذلك من سبيل ، فقد دخل الأب بينهما فأفسد كل شىء . وكيف بهذا الرجل

يدخل بين الزوجين حتى آخر الليل وحتى أوقات الصفو والرضا ، وقد انتهت الثورة بصاحبنا إلى الظلم ، فهو ينكر على امرأته أنها تحبه ، وهو يسرف فى ذلك ؛ وهى تتلطف حيناً وتشتد حيناً ، حتى يصل الأمر بهما إلى أقصاه . فهو يعرض عليها السفر ، وهى تأبى ، وهو يعلن أنه مسافر وحده ، وهى تنذر ، وهما فى هذا و إذا الخادم يطرق الباب، يتحدث إلى سيده بأنه قد أعدَّ له أمتعته ، و بأن القطار سيسافر ساعة كذا ، فإذا سمعت « فريدريك » هذا الحديث وفهمت أن زوجها كان قد أزمع السفر دون أن يظفر برضاها وقع ذلك فى نفسها موقعاً أليما ، فغلت فى العناد والإصرار ، وغلا هو أيضاً فى اللجاج ، وافترقا متغاضبين وانسدل الستار . و إنا لنسمع زفرات هذه المحبة المعذبة بين حبها وكبريائها ، بين أبيها وزوجها .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى بيت « جان لوى مارنييه » أول النهار . نرى « فريدريك » جالسة إلى مكتب فى يدها ورق وقلم كأنها تحصى شيئاً ، وقد دخل عليها أخوها الشاب ، وفهمنا من حديثهما أن هذا اليوم هو يوم الانتخاب فى المجمع العلمى ، وهى تحصى الأصوات التى قد يظفر بها أبوها والأصوات التى قد تخطئه . وهى تلاحظ لأخيها أن الأستاذ قد عاد متأخراً فى الليلة الماضية وأنه متعب ، وأنها قد أمرت الخادم ألا يوقظه إلا إذا تقدَّم النهار . ولكنها لا تكاد تفرغ من هذا

الحديث حتى يدخل الأستاذ كأحسن ما كان قوة ونشاطاً مستعدًّا للخروج ، فتلقاه ابنته فى دعابتها وفكاهتها ، ويلقاها هو بمثل ذلك . وانظر إليها تطلب إليه يومه وليلته تريد أن يفرغا من المهنئين بعد الانتخاب ، وأن يفلتا إلى أحد المطاعم ثم إلى أحد الملاعب ، وهو يجيبها فى غموض : « سنرى . . . »

ويبدأ فيعلن إليها أنه لن يتغدى معها وينتحل لذلك المعاذير ، وهى مغضبة فى دعابة . ولكن جدها قد أقبل ، وأقبل من مكان بعيد ليشهد يوم الانتخاب ، فينفلت الأستاذ ويترك ابنته مع الشيخ . ولا تكاد المرأة تتحدث إلى جدها حتى يذكر « بيير » ونرى من الحديث أنها تألم ولكنها تكظم ألمها ، وهى غير موفقة فى هذا الكتمان : أليست قد أحصت الأيام منذ سافر زوجها ؟ أليست مغضبة لأنه لم يكتب إليها كتابا واحداً وقد مضى على سفره نيف وثلاثون يوماً ؟ ! أليست كانت تنتظر أن تراه فى باريس يوم الانتخاب ! ؟ هى مغضبة واجدة ، وكانت تحب أن ترى زوجها لتتفق معه على الطلاق فليس إلى استمرار الزوجية من سبيل . وقد أنبأها المحامى أن قضية الطلاق لا تحتاج إلى أكثر من شهر إلا أن يقاوم زوجها ، وما تظن أنه يقاوم . فإذا أراد الشيخ أن ينبئها بأنها ما زالت تحب زوجها غضبت وزجرت جدها كأنها تشفق من هذا الحديث .

ولكن الخادم قد دخل ومعه بطاقة . تنظر فيها فإذا هى بطاقة « مسز

ونتون » ويقول الخادم إن هذه السيدة تلح فى أن ترى مولاته ، فتأذن لها وتخلو اليها . فتسألها هذه : ما بالها لم تجب إلى دعوتها وقد طلبت اليها الزيارة غير مرة ؟ فتعلن اليها « فريدريك » دهشة أنها لم تتلق دعوة ولم تعلن بوجودها فى باريس . فتسألها : ألم يخبرك الاستاذ بأنى فى باريس منذ حين ، وأنى أراه كل يوم وكل ليلة وأنى أكلفه دعوتك إلى زيارتى وأنى معتزمة أن أسافر معه إلى روما ، وأن زوجى قد مات ، وأن الأستاذ يريد أن يتخذنى له زوجاً ، وأننا نفكر فى أن نصلح بينك وبين زوجك ؟ ! وتقع هذه الأنباء كلها من « فريدريك » موقع الصاعقة ، ويظهر لهاتين المرأتين أن الرجل قد كذبهما وعبث بهما ، فتتفقان فجأة على مقته والسخط عليه ، وتنشأ بينهما فجأة مودّة قوية مصدرها فيما يظهر تشابههما فى الحب والارادة والصراحة واستقامة الخلق . وهما فى ذلك إذا الاستاذ قد عاد ؛ فاذا رأى صاحبته أخذه الاضطراب ولم يحسن الحديث ، ثم تتركه صاحبته لابنته . فيكون بينهما موقف عنيف مؤلم ، يظهر فيه مقدار ما لحب النفس من التأثير فى حياة الناس : هذا الرجل الذى كان يحب ابنته ويسرف فى حبها حتى ليضحى بها فى سبيل نفسه ، وهذه المرأة التى كانت تحب أباها وتسرف فى حبه حتى لتضحى بزوجها فى سبيل هذا الحب ، وقد وقفا الآن موقف الخصومة وجهاً لوجه ، لأن امرأة أخرى قد دخلت بينهما فاستأثرت بقلب هذا الرجل . وهذه ابنته تتهمه بالكذب والقسوة والأثرة والخداع ، وهو يتهم ابنته بالعقوق والإثم .

وهى تعلن اليه أنه لن يتزوج من المرأة ، وهو يعلن اليها أنها ستعود الى زوجها ، و سيقترن هو بهذه المرأة ؛ كل ذلك فى قوة وعنف مؤثرين حقاً .

و يقبل الشيخ فينقطع هذا الحوار العنيف ، وتنصرف الفتاة . فاذا خلا الرجلان قال الاستاذ لحميه : يجب أن تسافر وتعود ومعك « بيير » فيجيب الشيخ : إن « بيير » فى باريس وهو فى بيته ، بين هذه الأشياء التى تمثل حبه يألم و يأسى . فيقول الشيخ : اذهب فأنبئه أن امرأته تنتظره . فإذا تردد الشيخ ألح عليه الأستاذ وأقسم إنه لصادق ، فينصرف الشيخ مسروراً متردداً معلناً أن الأمر متصل بسعادة حفيدته ، فيقول الأستاذ وكأنه يحدث نفسه : وسعادتى أنا أيضاً . . . !

* * *

فإذا كان الفصل الرابع فلم يمض على هذا كله إلا دقائق . ونحن نرى « فريدريك » متهيئة للخروج ، ولكن الخادم ينبئها أن زوجها يستأذن ، فتأذن له فى دهش وحيرة تقدرهما أنت قدرهما . فاذا رأته سألها : أأنت قد دعوتنا ؟ فتجيب فى دهش : نعم ! . ثم تقبل عليه معتذرة مستعطفة متلطفة . ونحس نحن أن هذا كله يهز الشاب هزاً عنيفاً ، وأنه لو استسلم لعواطفه لقبل ورضى بل لاعتذر واستعطف . ولكن له إرادته وكبرياءه ، فهو يكظم تأثره و يظهر الشك ، حتى إذا فرغت امرأته أو كادت تفرغ أعلن اليها فى صراحة ملؤها الجفوة والحب معاً أنها إنما تستعطفه لأن أباها يريد أن يتزوج ، ولأنها تحس أنها

ستصبح وحيدة ، فهى تعود إلى زوجها حتى إذا عاد اليها أبوها رجعت اليه . وهو دهش لأنها لا تعلم من أمر هذا الزواج شيئاً . ولكن دهشه سيزول ؛ فهذا الأستاذ قد أقبل محزوناً منكسر النفس قد ظهر عليه الضعف والاستسلام ، فيخبر بأنه هو الذى دعا « بيير » ، ثم يخبر بأنه فاز فى الانتخاب ولكنهُ على ذلك محزون منكسر النفس . ذلك أن حبيبته قد قطعت ما بينهما من صلة ، وأعلنت اليه أنها تاركة باريس مساء اليوم ، وأبت عليه حتى أن يودعها بل أن يراها مرة أخيرة قبل سفرها . وهو يلوم ابنته لأنها مصدر هذا كله .

ثم انظر إليه يستعطف ابنته و يتوسل إليها ، فهى وحدها تستطيع أن تغير رأى هذه المرأة ، وهى وحدها تستطيع أن تردها اليه فترد اليه الغبطة والسعادة والحياة . وهو يعتذر و يلح فى الاعتذار ، و يعترف بأنه كان أثراً آثماً مسرفاً فى حب نفسه ، ولكنهُ لم يكن يحس هذا كله ولا يقدره . وابنته لا تجيبه إلا فى قسوة وعنف حتى يرق « بيير » نفسه و يلومها على ذلك فى لطف . وقد انتهى الأمر بهؤلاء الناس إلى حرج ليس بعده حرج . فأما الأستاذ فمذعن مستسلم بعد أن ظهر له أن ابنته لن تشفع له . وأما « بيير » فمستمسك بكبريائه ، لم يقتنع بعد بأن امرأته تحبه هذا الحب الذى يمكنها من التضحية بأبيها ، وأما « فريدريك » فقد أعلنت فى حزم وقسم أنها تاركة هذا البيت مساء اليوم ولن تعود إليه مهما يكن من شىء سواء أتم الصلح بينها و بين زوجها أم لم يتم . وانظر إلى استسلام

الشيخ وقد نهض معلناً أنه ذاهب إلى الدوقة لأنها جمعت إلى الشاب طائفة من المعجبين به يهنئونه بالفوز فى الانتخاب ، وهو يداعب صهره فى حزن فيطلب إليه ألا يهزأ بشيوخ المجمع العلمى .

وقد أقبل صديق « بيير » يتعجله ليسافرا ، فيتردد قليلاً ثم يجيب بأنه لن يسافر الآن . وتقع هذه الجملة من نفس « فريدريك » الموقع الذى تقدره أنت ، فقد أحست أن زوجها قد رضى وثاب إليها . ولكن زوجها يسألها : ألا ترين أن أباك يحب هذه المرأة حباً مبرّحاً ؟ فتجيب : بلى ، ولكنه لا يستحق هذه المرأة . فيلح ، وانظر إليه يستعطفها ويتوسل إليها فى أن تشفع لأبيها عند حبيبته ، فتقبل كارهة ، ولكن على أن يشاركها فى هذه الشفاعة لتعلم هذه المرأة أن سعيهما صادق وأنهما قد تصافيا حقاً .

مارس سنة ١٩٢٧

سعادة اليوم

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « أدمون جيرو »

وليس ينبغى أن يخدعك هذا العنوان ، فتقدر أنك ستقرأ تحليل قصة خلقية اجتماعية تعرض للسعادة وتصوِّر الناس لها فى هذا العصر ، فليس بين القصة التى نلخصها فى هذا الفصل و بين هذا الموضوع صلة ما . وإنما « سعادة اليوم » اسم أداة من هذه الأدوات التى تتخذ فى الدور ، نستطيع أن نطلق عليها هذا الاسم العامى المبتذل « المكتب » ونريد به هذه المائدة التى تتخذ للكتابة ، وفيها أدراج كثيرة تحفظ فيها السيدات أوراقهن وما لهن من هذه الأدوات الدقيقة المتنوعة . « فسعادة اليوم » فى هذه القصة ليست شيئاً غير هذا ، هو لفظ أطلق فى عصر من العصور الفرنسية وفى طبقة من الطبقات الفرنسية على هذه الأداة الشائعة . وقد أعطت هذه الأداة الشائعة اسمها لهذه القصة لأنها كانت تحتوى سراً من أسرار أسرة ، فأستكشف هذا السر ، وكان استكشافه مصدر طائفة من الأحداث والانفعالات عبثت بطائفة من القلوب والنفوس عبثاً عرضه علينا الكاتب فى قوة ودقة ومهارة خليقة بالإعجاب .

ولعلك لم تنس بعد هذه القصة البديعة التى حدثتك عنها فى الشهر الماضى ، قصــة « الفؤاد المقسم » . ولعلك لم تنس بعد هذه العواطف المختلفة التى تتنازع القلوب وتعبث بالنفوس فيما رأيت من قوة وعنف . فقصتنا فى هذه المرة تشبه تلك القصة من هذه الناحية ، فهى قصة جهاد عنيف بين عواطف قوية حادة تتنازع قلباً كريماً بريئاً من الشر والإثم ، ولكنه فى الوقت نفسه متأثر أشد التأثر بالحياة الاجتماعية وما توارث الناس من عادة ورأى وحكم ، وما تواضعوا عليه من خلق ونظام . هى قصة نفسية لأنها تعرض عليك نفساً إنسانية فى ظرف من هذه الظروف الحرجة العسيرة التى تكشف عن دخائل الإنسان وتجرده أو تكاد تجرده من كل هذه اللفائف التى تلفه بها الحياة الاجتماعية . فهى قصة اجتماعية لأن هــذه النفس التى يعرضها عليك الكاتب إنما تألم وتحس ما تحس من عذاب ، وتخضع لما تخضع له من حرب وجهاد ، بحكم الأوضاع الاجتماعية المتناقضة ، و بحكم الأحداث الاجتماعية التى تحدث فى حياة الناس من حين إلى حين ، فتكونهم كما تحب لا كما يحبون ، وتصورهم كما تريد لا كما يريدون . وهى قصة خلقية أيضــاً لأن هذه النفس حين تتألم وتشعر بالعذاب ، مضطرة إلى أن تظهر شيئاً من الجلد والقوة على المقاومة ، وهى لاتقاوم عبثاً و إنما تقاوم فراراً من شر وحرصاً على خير ونفور من الأذى ورغبة فى البر .

وهى بعد هذا كله قصة لم تنس المثل الأعلى الذى يضــعه الأفراد

والجماعات أمامهم حين يحبون وحين يختلفون فى أمورهم المتباينة .

هى هذا كله ، وهى إلى هذا كله نموذج من نماذج اللفظ المختار المنتقى ، والحوار الدقيق اللطيف ، والمعانى الجيدة التى فكر فيها صاحبها فأحسن التفكير ، ونسقها فأجاد التنسيق . وقد يستطيع هذا الفصل من فصول التمثيل الفرنسى أن يغتبط بعض الاغتباط ، فهو غنى بهاتين القصتين ، وهو خير من فصول أخرى سبقته ، ولم يظهر فيها كما رأيت فى الشهر الماضى الا لون من هذا القصص التمثيلى الفاتر الذى لا يمثل شيئاً ولا يدل على شىء .

ولأعرض عليك أشخاص هذه القصة كما تعودت أن أفعل بازاء القصص الأخرى . فقد يكون هذا العرض أيسر سبيل إلى فهمها وتذوقها . ولكنى حائر لا أدرى بأى هؤلاء الأشخاص أبدأ ، فالظاهر أن لهذه القصة بطلا ممتازاً تدور حوله ، ولكن أشخاصها جميعاً أبطال ممتازون . وما أدرى فى حقيقة الأمر إلا أن لكل واحد منهم حياته القوية المؤثرة الممتازة . أأبدأ بهذا الشاب الذى تدور القصة كلها حوله والذى يظهر أنه البطل الممتاز فيها ، والذى يظهر فى الوقت نفسه أنه ضحية أبيه وأمه وعصره ؟ ولم لا ؟ فلا بد من أن نبدأ بواحد من هؤلاء الأبطال . فليكن هذا الشاب .

* * *

جان بليسيه شاب قد ناهز من عمره الثلاثين ، جميل المنظر قوى

عذب الخلق ، حلو الحديث ، رقيق القلب . ولكنه فى الوقت نفسه بطل من أبطال الحرب الكبرى ، أدركته ولما يكد يدع المدرسة ، فيدخلها جندياً ، ولكنه أبلى فأحسن البلاء ، وتقلب فى مراتب هذه الخدمة العسكرية العاملة وذاق آلامها ولذاتها جميعاً ، حتى انتهى به الأمر إلى أن أصبح ذا مرتبة عالية فى فرقة الطيرن . وقد أحسن البلاء فى هذا اللون من ألوان الحرب ، وجر عليه ذلك خطوباً وألواناً من الشرف ، فرأى الموت وصافحه أوكاد ، واضطر إلى المستشفى ، وتحلى صدره بالأوسمة المختلفة ، ثم انجلت عنه غمرة الحرب فاذا هو يعود إلى حيث يقيم أبواه فى أحد الأقاليم الفرنسية و يعيشان عيشة ثروة ونعمة وعمل وهدوء . يعيشان فى قصر فخم من قصور العصور الوسطى ، اشترته الأسرة حين أثرت . ولكن هذا القصر وما حوله من الأرض الواسعة مهملان أو كالمهملين ، لأن رئيس الأسرة منصرف عنهما إلى مهنة الطب التى يحبها و يكلف بها . فاذا عاد الشاب إلى أسرته أسرعت ففكرت فى أن تكل إليه تدبير هذه الثروة ، على أن يكون ذلك عمله فى حياته ، وأسرعت فاختارت له فتاة حسناء لتكون زوجه . وظهر اطمئنان الفتى إلى هذا النوع من الحياة ، فعنى بالقصر والأرض ، وشغف بالفتاة وشغفت به الفتاة أيضاً ، وأخذا يستقبلان الحياة فى ابتسام و بهجة ، لولا « سعادة اليوم » التى حدثتك عنها فى أول الفصل والتى ستظهر لهذا الفتى أن نشاطه وسروره وابتهاجه للعمل فى هذه الحياة السلمية ليست طبيعية ، و إنما هى علة يتعلل بها كارها ، و إنما حياته الحقيقية فى الحرب .

وهذا الشاب من أبوين مختلفين أشد الاختلاف فى الطبقة والتربية . فأمه من أسرة شريفة بعيـدة فى الشرف ، تحفظ نسبها فى القرون الوسطى ، وتذكر ما كان لأجدادها من بلاء فى تاريخ فرنسا ومن مكانة فى قصور ملوكها . وأم هذا الفتى قد ورثت عن أسرتها الشريفة هذه كل خلالها ، فهى مترفة مهذّبة رقيقة ممتازة ، وقد أورثت هذه الخلال كلها ابنها الشاب .

أما أبوه فمن طبقة أخرى ، من هذه الطبقة التى كانت مهضومة مظلومة قبل الثورة ، والتى اكتسبت الحرية بعد الثورة ، وجدّت فأضافت إلى الحرية ثروة وقوة واستئثاراً بالحكم . وفيها خلالها ، فهى نشيطة عاملة صريحة شريفة الخلق . وفيها عيوبها أيضاً فهى غليظة خشنة قليلة الحظ من التهذيب والرقة والامتياز ، لا تتنزه عن صغائر تعافها الأرستقراطية . كان جد هذا الفتى يعمل فى البريد ، ولـكنه جد حتى أثرى وأحسن تربية ابنـه حتى أصبح ابنه وزيراً فى الأمبراطورية الثالثة ، وترك هذا الوزير ابناً أحسن تربيته فهو طبيب وهو أبو هذا الشاب .

وهذا الشاب متأثر — كما قلنا — بما ورث عن أمه ، نافر أشد النفور من أخلاق أبيه . فهو لا يكاد يحتمل أباه منذ رجع من الحرب ، وهو يألم لهـذا ولـكنه لا يجد إلى اتقائه سبيلا ، وأبوه يألم له أيضاً ، ولـكنه يروض نفسه على هذا الألم ، وقد علّمته الحياة أن يروض نفسه

على الألم ؛ فقد نشأ كما رأيت ابناً لهذا الوزير ، وأدركته حرب السبعين وما تبعها من الهزيمة ، فتركت فى نفسه ما تركت فى نفس الفرنسيين جميعاً من هذه الآثار المؤلمة التى يمثلها ضعف العزيمة والاستسلام ثم الطمع والشك . وكان أبوه ضخم الثروة ، فزوّجه من امرأته الشريفة الفقيرة . وجدَّ هذا الرجل فى مهنة الطب حتى أحبها علما وعملا ، واتخذها سبيلا إلى البر بالفقراء والإحسان إلى البائسين . وهو شديد الإعجاب بأسرته وجدّها ونشاطها ، لا يكره مع ذلك أن يزدرى الأشراف وخمولهم وكبرياءهم . ولكن الحياة كانت تدّخر له ألماً هو الذى جعله بطلاً كما أنه أسبغ البطولة على امرأته أيضاً . وليس من الخير أن نتعجل فنكشف لك عن هذا الألم ، فهو قوام الشطر الأول من القصة . .

فلندع هذه الأسرة ، ولنذكر الشخص الرابع من أشخاص القصة ، وهو « جرين داجوزون » خطيبة جان . فهى فتاة جميلة فتانة ولكنها فقيرة . هى من أسرة نبيلة ، ولكن أباها كان سيئ السيرة والخلق ، وأمها كانت تعسة سيئة الحال . فأما أبوها فقد مات . وأما أمها فقد بقى لها من هذه الحياة السيئة ضرب من الاضطراب العقلى والخلقى ، يمثله الغرور والشره والتكلف وما إلى هذه الأخلاق مما يجعل الإنسان موضع السخرية والإشفاق فى وقت واحد . ولكن الفتاة لم تتأثر بشىء من هذا ، وإنما نشأت نبيلة ذكية القلب جلدة قوية الإرادة ، قادرة على المقاومة ، ولكنها رقيقة محبة أيضاً . ولم تكد تعرف هذا الفتى حتى

أحبته حباً قوياً عنيفاً ، ولـكنه شريف ممتاز يشبه حب الفتى لها .

هؤلاء هم الأشخاص ، لم أعرض عليك من أمرهم إلا ما يمكن أن يعرف قبـل أن تحدث حوادث القصة فتكشف من نفسياتهم عما كان مخبوءاً .

فاذا كان الفصل الأول فنحن فى أعلى القصر فى هذه الغرف التى تتخذ مُلْقًى للأدوات العتيقة بعد أن يستغنى عنها ويزهد فيها ، فتترك فى هذه الغرف مهملة وديعة فى أيدى الزمان يفنيها قليلا قليلا ، وتهمل معها هذه الغرف ، قد أُغلقت أبوابها من دون هذا المتاع كما تغلق المقابر دون ما تودع من أجسام الموتى . وقد صعد جان إلى إحدى هذه الغرف ففتح أبوابها ونوافذها للهواء والضوء ، وأخذ يتفقد ما فيها من متاع فى إعجاب وشغف . وما هى إلا أن أخذ ينسق من هذه الغرفة وما فيها مكاناً يستقبل فيه خطيبته وأمها وأبويه لتناول الشاى . وكانت هذه الفكرة قد خطرت لخطيبته حين علمت بأن فى أعلى القصر أدوات قديمة من متاع القرون الوسطى . فأقبل الفتى يهيىء لها هذه الغرفة ، وهو يحاور فى ذلك خادمه حواراً لذيذاً خفيفاً . فهو كَلِفٌ بهذا المتاع القديم لأنه يمثل حياة آبائه ، ولـكن خادمه منصرف عن هذا المتاع لأنه عتيق قد عمل فيه الفناء ، ولأنه يؤثر الجديد الذى لم ينله البلى . وانظر إلى الغرفة قد نسقت تنسيقاً حسناً ، وإلى طاقات الزهر قد وضعت فى هذه

الآنية القديمة . ثم انظر إلى الفتاة قد أقبلت فما تكاد تنظر إلى هذه الأشياء حتى تُفْتَن بها وتمضى فى الإعجاب والثناء . وما كان أخلقها أن تمضى فى ذلك إلى غير حد لولا أنها تحب صاحبها ، وصاحبها يحبها وخلوتهما ضيقة محدودة ، فلا بدّ من أن يتحدثا فى الحب ، ولا بد من أن يتبادلا هذه القُبل التى يفتنّ الخطيبان فى انتهاز الفرص لها .

وهما يتحدثان فى حبهما فى خفة ورشاقة وجدّ أيضاً . ونحن نحس أننا لسنا أمام حب فاتر أو نزق ، وإنما هو الحب القوى الحادّ الذى لا يكاد يدخل القلب حتى يملأه ويستأثر به ويندفع منه إلى جميع الملكات والعواطف والحواس فيخضعها لسلطانه . هذا الحب الذى كله ثقة وأمل ورغبة واحترام وطمأنينة . وهما فى هذا الحديث وفى هذا الحب وإذا الأسرة قد أقبلت ، فلا أخلص لك ما يدور من حوار حول المتاع ثم حول الشاى ، فقد تستطيع أن تستغنى عن هذا كله ، وإنما ألاحظ أن الأب قد أقبل فرحا مبتهجاً فتغنى مع الفتاة بعض أغانى الأقاليم ، وكانت الفتاة بها مبتهجة وأمها كذلك وامرأته أيضاً ، إلا الفتى فقد غاظه ذلك وضاق به ذرعا ، ولم يستطع أن يخفى ضيقه ، بل عرّضَ باللوم لأبيه ، وقبل الشيخ هذا اللوم فى ألم وغيظ وحزن وسخرية . وانقضى الشاى بين الضحك والحزن تتقيه أم الفتى ما استطاعت .

ثم يعلن الشيخ إلى الفتاة أن فى القصر غرفا كهذه الغرف فيها

متاع أقدم من هذ المتاع وأجمل . فترغب الفتاة فى أن ترى . ويقبل الشيخ على أن يظهرها على هذا المتاع ، وينصرفون جميعاً إلا الخطيبين، تخلفا فيما يظهر ليختلسا كلمة أو قبلة . والفتاة تدعو صاحبها إلى أن يتبعها إلى حيث ترى المتاع ، وهو يأبى ويتعلل ، وما هى إلا أن نفهم من تعلله أنه لا يريد أن يرافق أباه ، وأنه ضيق الذرع بأبيه وطبقة أبيه وما لهذه الطبقة من عادة وما فيها من عيب ، وأنه شديد الإعجاب بأمه وطبقة أمه وما فيها من ترف ولين ورقة . وانظر إليه وقد استكشف هذا المتاع القديم الذى كان يسمى «سعادة اليوم» فهو يظهر الفتاة على محاسنه وما فيه من رشاقه فنية . وهو يوازن لها بين هذه الأداة الرشيقة التى تمثل ذوق أمه وأسرتها الشريفة ، وبين تلك الأدوات الغليظة التى يمتلىء بها القصر والتى تمثل ذوق هذه الطبقة الوسطى التى سادت بعد الثورة .

وقد تركته الفتاة ، فعمد إلى هذا المتاع ، وأخذ ينظر فى أدراجه ويستنشق رائحتها فى شغف وفتنة ، لأن هذا المتاع قد كانت أمه تستخدمه فى شبابها، فهو إنما يتنسم شباب أمه . وقد جذب إليه درجاً فتنسمه ثم حاول أن يرده فيستعصى عليه كأن شيئاً يعترض دونه ، فينظر فاذا حزمة من الورق ، فيسرع إليها متلهفا ويتردد ثم يفضها ، فإذا رسائل تنتثر ، فيسرع إلى هذه الرسائل يجمعها ويخفيها فى جيبه . ولكنه يسمع صوتاً فيبالغ فى السرعة ثم ينهض فنيصرف وقد أقبل أبوه فرآه مولياً،

ونظر فإذا رسالتان على الأرض قد أخطأهما ، فيسرع إليهما فيدسهما فى جيبه .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى فقد مضت أيام على ما قدمت لك ، والقوم مجتمعون فى غرفة المائدة بعد العشاء ومعهم الخدم جميعاً كأنهم فى حفل منزلى ، والشيخ قائم أمام نار الموقد المتأججة يشوى فيها بنفسه « الشاه بلوط » (أو الكاستينا كما يسمونه الآن) . وهو يقص على الفتاة وأمها من عادات الإقليم وأحاديثه ما يضحكهما و يلذهما . وهم جميعاً مبتهجون إلا الشاب فقد تنحى وانصرف إلى كتاب كأنه ينظر فيه ، و إلا أم الفتى فهى قلقة لما تشاهد من ضيق ابنها وسوء الحال بينه و بين أبيه . وقد انتهى عبث الجماعة إلى آخره ، وأعلن الشيخ أن ستجمع طائفة من هذا (الشاه بلوط) الذى يشوى، تخرج من الجمر ثم يوضع عليها غطاء ما، ثم تجلس عليها أصغر الحاضرين سنا . وقد قبلت الفتاة ، والخدم مبتهجون ، وأمها مترددة متكلفة ، ولكن الفتى يترك كتابه و ينهى خطيبته عن هذا العبث فتأبى ، فيلح فتزداد إباءً ، فيبالغ فى الإلحاح فتغضب ، و يفسد الأمر بينهما بعض الشىء ، وتنصرف غير حافلة بأمها ونذيرها ، وقد أعلنت أن خطيبها يجب أن يعرفها حق المعرفة وأن يعلم قبل أن يتخذها له زوجاً أن لها إرادة وأنها قد تغلو فى هذه الإرادة أحياناً . وقد فسد الحفل وانقلب السرور شيئاً يشبه الحزن .

ومضى كل إلى مضجعه ، ويظل المسرح خالياً حيناً ، ثم إذا الشاب قد أقبل إلى المكتبة يلتمس فيها شيئاً ، فيستخرج مجمعاً للصور وينظر فيه كأنه يبحث عن صورة بعينها ، حتى إذا انتهى إليها اختلسها ودسها فى جيبه . وما يكاد يفرغ من هذا حتى يحس صوتاً فيرد مجمع الصور ويظهر أنه يأخذ كتاباً . وقد أقبل أبوه ، فيسأله : ماذا يصنع ؟ فيجيب الفتى إنه قد امتنع عليه النوم فأقبل يلتمس كتاباً يستعين به على الأرق . يجيب الشيخ : وهذه حالى ، فلنتحدث قليلا . .

وما يكادان يبتدئان الحديث حتى يصل الشيخ إلى ما كان يريد ، فهو يريد أن يتعرف من شأن ابنه مصدر هذا الضيق الذى ظهر عليه منذ أيام والذى أقلق أمه ونغص عليها الحياة ، أو قل إن الشيخ يعرف مصدر هذا الضيق ولكنه يريد أن يتحدث فيه إلى الفتى . أما الفتى فيتكلف الجواب ويحتال فى اتقاء الشيخ ويعلن إليه أنه ضيق الذرع بهذه الحياة التى يحياها بعد الحرب والتى لا عمل فيها ، وأنه يريد أن يعمل وأن يكسب وألا يكون مديناً بحياته لأحد .

أما الشيخ فلا تخدعه هذه المحاولة . وما هى إلا أن يصل إلى غرضه فى صراحة فيعلن إلى الفتى أنه قد عثر بطائفة من الرسائل ، ولكنه نسى منها اثنتين ويدفعهما إليه ، وأنه قد قرأ هذه الرسائل وعرف ما عرف من أمرها وأن هذه الرسائل هى التى تقص عليه حياته . فاذا أظهر الفتى شيئاً من الدهش أنبأه الشيخ فى هدوء وألم مبتسم بأنه يعرف مافى هذه الرسائل

وعرف ما عرف من أمرها ، وأن هذه الرسائل هى التى تنغص عليه حياته ، فاذا أظهر الفتى شيئاً من الدهش أنبأه الشيخ فى هدوء وألم مبتسم بأنه يعرف ما فى هذه الرسائل منذ ثلاثين سنة . ثم يقص على الفتى القصص .

فليس الفتى ابنه وإن كان ابنه أمام القانون وأمام الناس وأمامه هو أيضاً . ذلك أنه قد كان تزوج من امرأته دون أن تحبه كما يتزوج أصحاب الثروة من الفقيرات فى غير حب ولا كلف . فلما لم يجد من امرأته حبا ولا حناناً ولا هياماً زهد فيهـــا وانصرف عنها الى اللهو والعبث ، وفرحت هى بهذا الزهد والانصراف . وفى ذات ليلة لقى صديقاً له كان رفيقه فى المدرسة ، وكان من الأشراف ، وكان قد أحب امرأته وكانت قد أحبته ، وكانا يريدان الزواج . ولكن الفقر حال بينهما وبينه . فلأمر ما حرص صاحبنا على أن يستأنف الصلة بينه وبين صديقه القديم . وانظر إليه يتهم نفسه أشنع التهم فى لطف ورقة وكرم أيضاً . انظر اليه يحدث الفتى بأنه اجتهد فى أن يتردد صديقه على بيته وتتجدد الصلة بينه وبين حبيبته القديمة لأمر لايكاد يتبينه ، وربما كان منه أنه أحب أن يثير فى نفس امرأته حبها القديم لهذا الرجل لعلها تتورط فى شىء من الأثم فيتخذ ذلك حجة عليها وعذراً لنفسه من آثامه الكثيرة . ومهما يكن من شىء فقد كان ما لم يكن منه بد ، وأثمت المرأة ، وكان الفتى نتيجة هذا الإثم فأما أبوه فقد ندم وألح عليه الندم حتى التحق بجيش من جيوش المستعمرات الإفريقية وجاهد حتى اشترى خطيئته بالموت وأما أمه فقد

لقيت فى الحمل آلاما ثقالا وتعرضت فى الوضع لخطر الموت ، ووقف زوجها بين الأمانة لمهنته كطبيب يجب أن ينقذ المريضة ، والانتقام لنفسه كزوج يريد أن يقتل الخائنة ، فوفى لمهنته وأنقذ المريضة حتى إذا تم لها الشفاء لم يجد فى نفسه القدرة على استئناف الانتقام فصفح وعفا ، وندمت زوجه وتابت ، وكانت بينهما مودة استحالت حباً قوياً شريفاً استفاد منه الطفل فنشأ بين قلبين يحبانه ويعطفان عليه .

وقد سمع الفتى هذا القصص ، ولكنه بطل من أبطال الحرب ، قد تعود الهول وتجشمه ، وتعوّد المكروه وصبر نفسه عليه ؛ فهو يألم ولكنه يكظم ألمه ، وهو بين أمرين يتنازعان قلبه ونفسه : السخط على أمه وأبيه ، لأنهما وضعاه فى هذه المنزلة الكريهة ، والبر بهذه الأم التى لقيت فى سبيله ما لقيت من ألم وتعرضت فى سبيله لما تعرضت له من خطر . وهذا الشيخ الذى كان يظنه أباه والذى كان ينكره ويضيق به والذى ظهر الآن أنه ليس منه فى شىء : أيحبه لأنه نشّأه وربّاه كما ينشىء الأب ابنه فى مودة وحنان وحب ، أم يبغضه لأنه ليس منه فى شىء ، ولأنه هو الذى عرّض أمه للإثم والخطيئة ، وهو الذى اضطر أمه إلى أن تلده فى غير رضا الأخلاق والقانون ؟ . وأبوه ! ! أيحبه لأنه أبوه ، أم يبغضه لأنه ورّط أمه فى الإثم وجنى عليه هذا الوجود المنكر ؟ وخطيبته ! ماذا يصنع بها ؟ أيمضى فى حبها ويكتم عليها ما عرف من أمره فهو إذاً يغشها ويدلس عليها ؟ أم يظهرها

على كل شيء ، وإذاً فإلى أى حال ينتهى حبه وكبرياؤه وكرامته ؟

وهذه الثروة الضخمة التى يكلها إليه الشيخ أيقبلها وليست له ، أم يردها وإذاً ماذا يصنع ؟ فأنت ترى إلى هذا الموقف المعقد وإلى ما فيه من حرج .

وموقف الشيخ ! أتظنه يخلو من الحرج ؟ كلا فقد عفا عن امرأته ، وقد استطاعت امرأته أن تمحو ما فى نفسه من موجدة . وهو يحب امرأته ويريد أن يحميها من كل مكروه ، وقد كان هذا يسيرا ما خفيت القصة على الفتى ؛ ولكن الفتى قدعرف القصة ، ووقف الشيخ منه فى صراحة موقف الغريب فماذا يصنع ؟ وكيف يعصم امرأته من احتقار ابنها وسخطه ؟ وهو كان أحب الفتى واتخذه ابناً حقاً وقد ظهرت خبيئة الأمر ، فما له بشيء هذا الفتى ؟ ومع ذلك فلم يأثم الرجل ولم يقترف خطيئة ، وإنما تكلف اتهام نفسه ليخفف عن امرأته وليعطف الشاب على أمه . ما خانها ولا تعمد إغراءها وتوريطها فى الإثم . ومهما يكن من شيء فهو لا يطلب الآن إلا أن تجهل امرأته أن ابنها قد ظهر على جلية الأمر . وهو يائس أو كاليائس من حب هذا الفتى . وقد ضحى بنفسه مرة أخرى ، على أنه قد لقى من حب امرأته ما عزّاه عن تضحيته الأولى ، فلعله يلقى من إحسانه إلى الناس ومن حب الفتاة ما يعزّيه عن التضحية الثانية .

* * *

فاذا كان الفصل الثالث فقد مضى أسبوعان على ما كان فى الفصل الثانى . ونحن نرى الشيخ فى عيادته يستقبل المرضى و يطب لهم ، ولكنه متعب قد ظهر عليه السأم والضيق . حتى إذا انصرف آخر مرضاه دعا الخادم فيأمرها بأن تذهب إلى الصيدلى وتطلب إليه أن يحتال فى ألا تدفع إليه إحدى مرضاه ثمن الدواء ، فهو كثير وهى فقيرة ، ولكنها عزيزة النفس لا تقبل الصدقة ، فليخدعها الصيدلى إذاً وليخيِّل إليها أن الدواء رخيص ، وليضف قيمته الحقيقية إلى حساب الطبيب .

وانظر الى امرأة الطبيب قد أقبلت محزونة تشكو الى زوجها ضيق ابنها وانصرافه عنها وعن خطيبته ، وتلتمس لذلك العلل والأسباب ، وتخبر زوجها بأن الرسائل متصلة منذ أيام بين ابنها و بين وزارة الحرب . وهى مشفقة من ذلك ، والشيخ يعزيها فى مودة وحب ، ولكنه لا يظفر من تعزيتها بشىء ، وهى تطلب إليه أن يتحدث الى الفتى و يعظه لعله يكشف من أمره شيئاً ، ولعله يرده الى حب أمه وخطيبته والرفق بهما . فيتردد ثم يذعن ، وتنصرف امرأته وترسل اليه الفتى .

وما هى الا أن يتحدثا حتى نعلم أن الفتى قد طلب الى وزارة الحرب عملا ، فعرضت عليه بعثة فى الصين حيث الحرب قائمة فقبل . ومهما يفعل الشيخ ومهما يحتل ومهما يتلطف للفتى فلن يغير رأيه ولا عزمه . والموقف هنا بديع مؤثر حقاً . فالشيخ يصطنع اللين حيناً ، والاستعطاف والعنف حينا ، والنذير ، والفتى ثابت لايتزحزح عن موقفه قيد شعرة ،

ولِمَ يتزحزح عن موقفه وهو ابن الحرب قد كوّنته كما أرادت لا كما أراد ! ! لقد أنفق من عمره أربع سنين فى قتل وتدمير ، يقتل النساء والأطفال والشيوخ والشبان ، لا رأى له فى ذلك ولا إرادة ، ويواجه الموت يتقيه مرة ويرسله على الناس مرة أخرى ، فكيف تريده على أن يكون كغيره من أبناء السلم ! ! إنه يعلم حق العلم أنه يمزق قلب أمه وخطيبته وقلب الشيخ أيضاً ، ولكن ماذا يعنيه من هذا كله ! أليس ابن الحرب قد صورته فى هذه الصورة ! فليكن مصدر ألم ، وليكن مصدر موت ، فكذلك أرادت الجماعة أن يكون . وقد يئس منه الشيخ ، وأقبلت أمه يائسة أيضاً تسأله : أحق ما أنبأتنى به خطيبتك من أنك مرتحل إلى الصين ؟ يجيبها : نعم ! ! فما أشد تأثير هذا الموقف بين الفتى وأمه : تستبقيه ضارعة فلا يحفل ، تحاول أن تعرف السر الذى يضطره إلى هذا العزم فلا تفلح . وهى تفترض الفروض ، وتتوسل إلى الفتى بخطيبته ، ثم يخيل إليها أنه لا يحب هذه الفتاة فتجتهد فى صرفه عنها . ويكون بينهما حوار بديع مؤلم نتمثل فيه نحن إلى أىّ حد نسيت هذه المرأة إثمها وانصرفت عن خطيئتها ، وإلى أى حد أثر هذا الإثم فى نفس الشاب وأفسد عليه أمره .

وينصرف الشاب وقد أيأس الشيخين من نفسه . ولكن أمه قد عرفت الآن أنه قد ظهر على جلية الأمر . . . فانظر إليها منتحبة بين ذراعى زوجها ، وهو يعزّيها وينبئها بأنه قد اتهم نفسه ما استطاع

ليخفف عنها الوزر أمام ابنها . فإذا رآها تسرف فى البكاء خيِّل إليها أنها تبكى ندما لما تذكر من إساءتها إليه ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أنها إنما تبكى على ابنها لا عليه . فليضحِّ بنفسه مرة ثالثة ! أليس يحب هذه المرأة ! ! أليس يحب هذا الفتى ! ! فليعزِّ هذه ، وليجتهد فى إمساك ذاك . ولكن ليس إلى إمساك الفتى من سبيل .

☆☆☆

فنحن فى الفصل الرابع وقد أخفق الشيخ وامرأته والفتاة فى صرف الفتى عن عزيمته . ونحن فى طولون ثغر فرنسا الحربى حيث يأخذ الفتى سفينته الحربية إلى الصين . وقد أقبل الجماعة كلهم يودِّعونه . ونحن فى أحد المطاعم المطلة على البحر حيث السفينة وحيث يستطيع المودّعون أن يروا السفينة حين تقلع و يتبعوها بأبصارهم حتى تغيب . وأنا أعفيك من هذا الحوار اللذيذ الطويل بين الشيخ وصاحب المطعم ، وانتهى مسرعاً إلى هذا الموقف البديع بين العاشقين . فقد التقيا وتعاهدا على الحب والأمانة والوفاء ، وأعلن كل منهما إلى صاحبه خبيئة نفسه . ولكن انظر إلى الفتاة تطلب إلى صاحبها أن يرفق بأمه فقد أثمت كارهة . ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم لنفسه العصمة من الإثم ! وأن يحب الشيخ ولو قليلاً فقد كان زوجا برًّا وأباً رحيماً . وما ذنبه فى كل ما كان ! !

فاذا سأل الفتى صاحبته : كيف عرفت سره ، أجابته : لقد أخبرتنى به أمك واتخذتنى سبيلا إلى استعطافك وحملك على الرفق . وانظر إلى

الفتى وقد تأثر بهذا كله : بمكان أمه من نفسه ، ومكان هذا الشيخ الخير البرىء ، ومكان هذه الفتاة الطاهرة المحبة تستعطفه على هذين البائسين . وقد أقبل الشيخان ، فالفتى رفيق بهما ما استطاع ، يظهر لأمه من العطف والمودة ما يملؤها رضاً ، ويقبل الشيخ ولكن دون أن يقول له شيئاً ، والشيخ يرضى بهذه القبلة وهو واجم ، لأنه كان ينتظر كلمة مودة لم يظفر بها

وقد أقبل ضابط من السفينة يتعجل الفتى ، فيودع القوم جميعاً ، ولكنه لا يقول للشيخ هذه الكلمة التى كان ينتظرها . وقد مضى نحو السفينة ، وهم جميعاً يتبعونه بأبصارهم ، الا الشيخ فهو على كرسيه واجم محزون . ولكن القوم يسمعون من الفتى صوتاً لا يتبينونه ، ثم لا يلبثون أن تبينوا ، فاذا الفتى يدعو أباه ، وإذا هم جميعاً يدفعون الشيخ دفعاً إلى النافذة حيث يرى الفتى ويسمعه يدعوه بهذه الكلمة التى كان ينتظرها:

« إلى اللقاء يا أبت ! ! . . »

ابريل سنة ١٩٢٧

زوجاليونتين

قصة تمثيلية فكاهية بقلم الكاتب الفرنسى « ألفريد كابو »

نعم هى قصة فكاهية ولكنها لاتخلو من الجدّ ، أو قل هى قصة فكاهية ولكن كلها جدّ . فلن تخطىء إذا قلت هذا ، ولن تخطىء إذا قلت إن الفكاهة فى هذه القصة مع أنها روح القصة وغايتها لم تتخذ فى حقيقة الأمر إلا وسيلة إلى الجد ، وسيلة إلى هذا الجد الذى يحسن ألا يُقْصَدَ إليه مباشرة ، وألا يعمد إليه الكاتب فى غير احتيال وتكلف للطرق المعوجة ، إما لأن الكلام قد كثر فيه حتى أصبح حديثاً معاداً مملولاً ، فلا بد من عرضه فى صور جديدة لم يألفها الناس ، وإما لأنهُ من هذا الجد الذى تأبى الأخلاق العامة والأوضاع الاجتماعية أن يهجم عليه الكاتب فى غير احتياط ولا تلطف بالنظارة والقرّاء ، فهو مضطر إلى أن يحتال ويفتنّ فى الحيلة ليسمعك ما يريبك دون أن يروعك أو يسوءك أو يشق عليك .

والجد الذى يقصد اليه كاتبنا فى هذه القصة ويتخذ الفكاهة وسيلة إلى إدخاله فى نفوس القراء والنظارة لا يخلو من هذين الأمرين جميعاً ،

فقد كثر الكلام فيه حتى سئمه الناس أو كادوا يسأمونهُ ، وهو مع ذلك دقيق لا يخلو مما من شأنه أن ينفّر الحريصين على الأخلاق والمألوف من الأوضاع الاجتماعية . ولكنه على كثرة الكلام فيه حتى مُلّ ، وعلى دقته ومخالفته لما ألف الناس من خُلق وعادة ، خليق بالعناية حرىّ بالتفكير ، لم يصل فيه الناس بعد إلى رأى قاطع مقبول . وأنت تعلم حق العلم أن القصّاص ، سواء منهم الممثل وغير الممثل ، قد عالجوا أمر هذه المرأة اللعوب التى تخون زوجها فتسرف فى خيانته حتى تتمثل كأنها الرذيلة مجسمة ، ولكن لها من دون ذلك العبث والفجور طبيعة خيِّرة قابلة للصلاح والطهر . وأنت تعلم أيضاً أن هذه المرأة على كثرة ما دافع عنها القصاص والأدباء والفلاسفة لا تزال بغيضة إلى سواد الناس ، ممقوتة أمام ما اتفق الناس على أنهُ الأخلاق والعادات الموروثة . وأحب أن تطمئن ، فما أريد أن أدافع عن هذه المرأة ، وما أريد أن أغيّر فى الأخلاق ، ولا أن أمس هذه العادات بخير ولا بشر ، فلست أنا من هذا كله فى شىء ، وما أنا بالذى يفكر فى نقد النظام الاجتماعى وتغييره قليلاً أو كثيراً . إنما هى قصة أعجبتنى ، وأظن أنها ستعجبك ، بل أتمنى أن تعجبك ، ولهذا أُلخصها لك ، وأعرضها عليك فى غير حكم ولا تأييد .

فى هذه القصة خفة ورشاقة ، وفيها مجون ودعابة . ولكن من الذى حظر على الناس أن يعمدوا إلى القصص الخفيف الرشيق الذى تزيده الدعابة خفة ويزيده المجون رشاقة فيقرءوه ويشهدوه ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم

أن الأدب لا يكون أدباً إلا إذا كان جِدًّا كله ؟ ومن الذى يستطيع أن ينكر أن الدعابة والفكاهة قد تبلغان من التأثير فى النفس ومن إذاعة الخير وتحبيبه إلى النفوس ما لا يبلغه أشد الجد حموضة وعبوساً ؟

على أن قصتنا ليست من هذه الدعابة الممقوتة ، ولا من هذه الفكاهة التى تضيق بها نفس الرجل الخيّر المتشدد فى حب الخير . فهى تقارب العبث وتدنو منه فتسرف فى الدنو ، حتى يخيل إليك أنها ستتورط فيه ولكن الكاتب ماهر حريص على الخُلق ، حريص قبل كل شىء على حسّ الجمهور ، وعلى حسه من ناحية الخير ، فهو لا يريد أن يؤذيه ، فهو يدنيك من هذا العبث حتى تكاد تلمسه ، ثم ما هى إلا حركة يدفع بها قلمه فإذا أنت بعيد من الإثم كل البعد ، وإذا أنت لم تشهد منه إلا هذه الناحية التى تضحكك من الشر وترغبك عنه .

وهى فوق هذا كله تعرض لطائفة من الموضوعات الاجتماعية القيمة التى لن يوفق الناس لأن يتخذوا لهم فيها رأياً قاطعاً . تعرض لموضوع الطلاق مثلاً ؛ فما لاشك فيه أن الناس سيظلون مختلفين فى الطلاق ، يراه بعضهم خيراً لأنه يرفّه على الناس ويفصل بين الزوجين اللذين لا سبيل إلى أن يعيشا مؤتلفين ، ويمكنهم بذلك من حماية كرامتهم وشرفهم وآدابهم . ويراه بعضهم شراً لأنه يفصم عروة قد أحكمها الدين كما يقول المسيحيون ، ولأنه أبغض الحلال إلى الله كما يقول المسلمون . وسيظل أُولئك وهؤلاء فى خلاف وجدال ما احتاج الناس

إلى أن يكون بينهم الزواج والطلاق . ولكن هناك وجهاً من وجوه الطلاق لا يفكر فيه الناس كثيراً ، وربما لم يفكروا فيه بوجه من الوجوه ، وهم مع ذلك يحسونه ويجدون فيه اللذة حيناً والألم حيناً آخر. ذلك أن الطلاق فى حقيقة الأمر وسيلة قانونية للفصل بين شخصين لا يستطيعان الحياة مؤتلفين ، كما أن الزواج وسيلة قانونية للجمع بين شخصين يحبان أن يعيشا مجتمعين . ولكن المسألة هى أن نعرف أيستطيع الطلاق بعد أن يحقق هذا الفصل القانونى أن يحقق فرقة أخرى صحيحة فيقطع الصلة قطعاً باتاً بين الزوجين كأن لم يعرف أحدهما الآخر ؟ كما أن هذه المسألة نفسها تعرض بالقياس إلى الزواج ، فالزواج يجمع الزوجين جمعاً قانونياً ، ولكنه قد يعجز فى كثير من الأحيان عن أن يؤلف بينهما تأليفاً صحيحاً قوياً . ولعلك تذكر أنى قد حدثتك فى هذا المكان من الهلال منذ حين عن قصة لهذا الكاتب نفسه عرض فيها للطلاق وعجزه عن أن يفرّق بين الزوجين إذا جمع بينهما الحب الصحيح . وهذه القصة هى قصة « المذهبين » التى رأيت فيها رجلاً خان امرأته فأسرف فى خيانتها ، حتى طلبت الطلاق وظفرت به وهمّت أن تتخذ لها زوجاً آخر ، ومضى زوجها الأول فى إثمه وعبثه ، ثم التقيا فظهر أن الطلاق لم يفرّق بين قلبيهما وإن فرّق بين جسميهما ، وظهر أنهما مضطران إلى أن يستأنفا حياتهما الأولى .

وكاتبنا فى هذه القصة التى نحن بصددها يعرض للطلاق من هذه

الناحية و إن كان لا ينتهى إلى مثل النتيجة التى انتهى إليها فى القصة الأخرى ، بل ينتهى إلى نتيجة مناقضة من وجه ما لتلك النتيجة . فسنرى زوجين لم يستطيعا أن يعيشا مؤتلفين ، لأن المرأة خانت زوجها فأسرفت فى الخيانة ، حتى طلب الزوج الطلاق فظفر به . ولكن هـذا الرجل طيب القلب ، خير الطبع ، فهو يعطف على زوجه بعد الطلاق ، و يمدّها بما تحتاج إليه من معونة ، وهو ينالها بالبر والمودة أكثر مما كان يفعل قبل الطلاق ، وهو يحسّ أن هذا العطف وهذه المودة يناقضان أشد المناقضة ما ألف الناس من عادة وقانون ، فهو مضطرب بين إرضاء طبعه وعاطفته و إرضاء العرف . وهو يذعن فى كثير من الأحيان للطبع والعاطفة ، ولكنه يذعن مرة للعرف فيفرّ من امرأته المطلقة ، و يخيّل إليه أنه بهذا الفرار سيريح نفسه من هـذا الجهاد العنيف . ولكنك تعلم أن « الفريد كابو » صديق للمصادفة ، فهو يرى أن لها أعظم الأثر فى تدبير حياة الأفراد والجماعات ، وقد بيّنت لك هذا فى كل ما حلّلت من قصصه . وهو هنا يعرف للمصادفة هذا السلطان و يسخّرها فى قصته . و إذاً فيستطيع صاحبنا أن يفرّ من زوجه المطلقة ، فالمصادفة كفيلة بأن تكرههما على اللقاء ، و إذاً فسيظل الجهاد متصلاً بين هذه العاطفة التى تعطف الرجل على زوجه بعد الطلاق ، وهذا العرف الذى ينكر ذلك و يراه إثماً أو شيئاً يشبه الإثم ، ولا بد من تدخل المصادفة لوقف هذا الجهاد عند حدّ ما .

فأنت ترى أن هذا الوجه من وجوه الطلاق خليق فى نفسه بالعناية والدرس ، وأن الكاتب مهما يصطنع من الفكاهة والمجون لدرس هذا الموضوع وتقريبه إلى الناس فليس مسرفاً ولا غالياً فى العبث . ذلك إلى أن الأمر فى نفسه حقيقة من الحقائق الاجتماعية التى لا تقبل الشك. فكلنا يعلم أن الطلاق كثيراً ما يعقب الندم والحسرة . وكلنا يعلم أن قد كان لهذا أثره فى آداب الأمم المختلفة ، فى آدابنا العربية وفى الآداب الأجنبية على كثرتها واختلافها . و إذاً فهى حقيقة من الحقائق الاجتماعية يجب أن تدرس ، وأن يتخذ الأدباء إليها الوسائل المختلفة قصصاً حيناً وتمثيلاً حيناً آخر ، جداً مرة ، وفكاهة مرة أخرى . ذلك إلى أن هناك أشخاصاً من حق الأديب أو من الحق على الأديب أن يصورهم للناس ؛ فقد يكون فى تصويرهم ، إلى جانب النفع الفنى ، نفع خلقى واجتماعى . قد يكون هؤلاء الأشخاص أخياراً ، ففى تصويرهم ما يدعو إلى القدوة ، أو أشراراً ففى تصويرهم ما ينفّر منهم .

والحق أن الأشخاص الذين صورهم الكاتب فأحسن تصويرهم فى هذه القصة قليلون . هم أربعة ليس غير ، ومن حولهم أشخاص آخرون لا يمتازون بشىء . وهؤلاء الأشخاص الأربعة قد أحسن الكاتب تصويرهم حتى أصبح من اليسير جدًّا أن ننقل إليك صورهم فى غير إطناب ولا إطالة .

فأما أولهم فهو « أدولف ديبوا » رجل من أوساط الناس ، له ثروة

ولكنها ضئيلة ، يعمل فى ديوان من دواوين الحكومة ، خيّر الطبع ، رضىّ النفس ، مستقيم الخلق ، ضعيف الإرادة ، يكره الشر ولكنه لا يستطيع مقاومته فى يسر ، و يحب الخير ولكنه يحب نفسه أيضاً ، فهو لا يستطيع أن يعتمد على نفسه فى شىء ، و إنما هو محتاج إلى من يعينه و يرشده و يوجهه إلى سبيل الخير . وهذا الرجل هو الزوج الأول .

وأما الشخص الثانى فهو البارون ادوار دى لاجامبيير شاب من الأشراف ، ضخم الثروة ، ولكنه كصاحبه خيّر ضعيف الإرادة ، لا يستطيع المقاومة ولا يقوى على الجهاد إلا فى ناحية واحدة ، وهى الناحية المضادة لميول الأشراف وما توارثوا من عادة وسنّة ؛ فهو يكره عادات الأشراف ولا يحرص على تقاليدهم ولا يحفل بها .

والشخص الثالث هى « ليونتين » امرأة جميلة فتانة ، ولكنها كصاحبيها ضعيفة الإرادة خيّرة ، غير أنها لا تستطيع مقاومة الشر ، أو قل لا تكاد تميز بين الخير والشر ، سلطان الغريزة عليها أقوى من سلطان العقل ، محبة للفكاهة مندفعة فيها ، أو هى ترى الحياة كلها فكاهة ، حتى تعلمها المصادفة أن هذه الفكاهة قد تستحيل إلى جَدّ ، فتستفيد من هذا الدرس ، و إذاً هى صاحبة جدّ ولكنه جد باسم لا يكاد يخلو من الفكاهة .

والشخص الرابع هى الماركيزة «دى بريساك» شيخة من الأشراف ، هى عمة البارون دى لاجامبيير ، محافظة ، مسرفة فى المحافظة ، سيئة

الخلق ، طويلة اللسان ، ميالة مع هذا إلى الخير .

هؤلاء هم الأشخاص الذين تقع بينهم القصة . وهناك أشخاص آخرون كثيرون تأتى بهم المصادفة ليتم تدبير ما سيقع من الحوادث دون أن يكون لهم فى أنفسهم خطر .

* * *

فإذا كان الفصل الأول فنحن عند « أدولف » فى بيته فى باريس ، نشهد شاباً قد أقبل يطالب بقسط من الأقساط المالية ، فتظن الخادم أنه يطالب بالقسط المستحق من ثمن البيانو الذى اشتراه سيدها ، فتدفع إليه خمسين فرنكا ، فيضحك ويطلب ألفين . فإذا سمعت الخادم هذا الرقم جزعت وفزعت إلى سيدها ، فيُقبل ويعد الشاب بالأداء بعد دقائق . وما هى إلا أن يصل صديق له عضو فى مجلس النواب اسمه « بلانتين » يحمل إليه هـذا المقدار فيأخذه ويدفعه إلى الشاب . والخادم ساخطة تلوم سيدها لوماً عنيفاً ؛ فهى تعلم أين يذهب هـذا المـال ، هو يذهب فى حاجات زوجه المطلّقة . ومع ذلك فقد أضاعت هذه المرأة على زوجها أكثر ثروته ، ثم خانته فأسرفت ، حتى إذا طلقها اتخذت صناعة المومسات ، وهى مع ذلك لا تستحى أن تلجأ إلى زوجها القديم كلما مسها الضيق ، وزوجها القديم لا يستحى أن يعينها كلما لجأت إليه . ثم تنصرف الخادم مغضبة ، ويأخذ النائب فى النصح لصديقه ألا يفعل ، وصديقه يرى رأيه ويقبل نصحه . ولكن الخادم

تعود فتعلن إلى سيدها أن زوجه مقبلة ، فيضيق الرجل ذرعاً ولكنه يستقبلها . فإذا دخلت رأيت امرأة خفيفة الروح ، حلوة الحديث ، مستخفة بكل شيء ، قد أقبلت على زوجها القديم مطمئنة واثقة تتحدث إليه فى غير تكلف . وزوجها يخشى أن تكون قد أقبلت تطلب بعض المال فهو يدافعها عن ماله . ولكنها لم تُقْبِل لشيء من هذا ، إنما أقبلت لشيء آخر ؛ ذلك أنها غضبت على صاحبها فطردته ، أو غضب عليها صاحبها فانصرف عنها ، وكانت قد استدانت فعجزت عن أداء الدين ، وباع الدائنون متاعها ، وأصبحت وليس لها مأوى . وهى تبحث عن بيت ، ولكنها تريد مأوى حتى تجد هذا البيت وتهيئه للسكنى . وقد فكرت فى صديقاتها ولكنها استحت منهن ، فلم تجد إلا زوجها . فيدافعها الرجل عن بيته ، ويشجّعه صاحبه على الدفاع . وتقبل المرأة رفض زوجها راضية غير مكترثة فى ظاهر الأمر ، حتى إذا انصرف النائب عنهما أقبلت إلى « البيانو » فأخذت تعزف لاعبة باكية فى وقت واحد . وعجز صاحبنا عن المقاومة فأذِن لها أن تبقى عنده . وهو يفكر فى تدبير الأمر فسينزل لها عن غرفته وسينام فى غرفة الاستقبال . أما هى فلا تريد أن يفسد النظام فى غرفة الاستقبال بهذا السرير الذى سيضاف اليها ، وهى لا ترى بأساً أن تقاسم زوجها غرفته ، ولكن الزوج يرى فى ذلك البأس كل البأس ، فتقبل منه ذلك ضاحكة غير حافلة . وهل تحفل بشيء ؟ . . .

وانظر إليها قد نهضت فنظرت فى غرفة الاستقبال فلم يعجبها تنسيق المتاع ، فهى تقترح تغيير النظام ، تريد أن تنقل هذا المتاع من مكانه وتضع مكانه متاعاً آخر . وزوجها يرى رأيها وكأنه قد نسى الطلاق وخيّل إليه أنهما فى حياتهما الأولى . وانظر إليها بعد هذا تطاب إلى زوجها شيئاً من النقود ، وتكلف الخادم أن تشترى شيئاً من الزهر تزين به هذا البيت . ثم انظر إليها تداعب زوجها ، وهو يقاوم أول الأمر ثم تضعف مقاومته حتى يوشك أن يزل ، لولا . . . زيارة تفصل بينهما . فقد أقبلت صديقتان لزيارة « ليونتين » وكانت قد أنبأتهما أنها ستلجأ إلى عمها فتقيم عنده حتى يجعل الله لها من ضيقها مخرجاً ، فتُقْبِلان وتقدّم اليهما « ليونتين » أدولف على أنه عمها .

فإذا خلا النساء إلى أنفسهن قالت إحدى الصديقتين لليونتين : إن الله قد هيأ لها مخرجاً من هذا الضيق ، فإن البارون « ادوار دى لاجامبيير » الذى رآها منذ سنة مفتون بها ، وهو يلتمسها ويريد أن يتخذها خليلة له ، وهو مقبل لزيارتها بعد حين ، تقولان ذلك وتنصرفان . ويأتى الزوج وهو مضطرب فى دخيلة نفسه ، واثق بالزلل إن أقام مع امرأته ، عاجز عن أن يرى لنفسه مخرجاً من هذه الأزمة . ولكن صديقه النائب قد عاد يخبره بأنه مسافر ، فيطلب إليه أن يصطحبه ليخرج من هذه الأزمة ، ويقبل النائب . وانظر إليه يعلن إلى زوجه أنه مسافر الآن لأمر طرأ ، وأن سفره قد يطول ، وأنها مطلقة التصرف

فى البيت ما لم تسىء السيرة ، وأن خادمهُ متصلة بشخصها ، وأنه تارك لها مقداراً من المال يقترضهُ من صاحبه ، وهو يهيىء حقيبته و ينصرف

وما هى إلا أن يُقْبل البارون ومعه صديق له أستاذ فى مدرسة من مدارس الزراعة فى الأقاليم . فإذا استأذنا وأُذِن لهما انتظرا لحظة نراهما فيها وحدهما فنعرف أن البارون على ذكائه ومهارته فى تصريف الحديث مفحم أمام النساء ، ولا سيما حين يعجبنهُ و يقعن من نفسه .

وما هى إلا أن تدخل « ليونتين » حتى يظهر اضطرابهُ وعجزه وحتى تسخر منه فى نفسها ، و يظهر فى الوقت نفسه لَسَنُ هذا الصديق الأستاذ وفصاحته ، و إذا « ليونتين » مفتونة بهذا الأستاذ . ولست أطيل عليك بتلخيص ما يقع بينهم من حديث ، ولكن الأمر ينتهى بدعوة إلى العشاء وقبول لهذه الدعوة وخروج الثلاثة إلى حيث يَطعَمون

* * *

فإذا كان الفصل الثانى فنحن فى مدينة من مدن الأقاليم ، فى دار الأستاذ الذى رأيناه فى الفصل الأول ، وقد أقبلت لزيارته واستشارته المركيزة « دى بريساك » ومعها ابنة أخ لها جميلة يقال لها « أُورتنس » . وأُورتنس هذه تنبىء عمّتها أنها كادت تفقد الحياة لولا أن رجلاً أنقذها وردّ عنها فرساً جامحاً كاد يقتلها . وعمّتها تسخر منها ومن صاحبها الذى أنقذها ، كما تسخر فى غضب وسخط من ابن أخيها البارون « دى لاجامبيير » الذى تزوج امرأة مطلقة من باريس خارجاً بذلك

على تقاليد الأشراف وأُصول الدين . وهذه الشيخة مغضبة محنقة على كل شيء ، ترى أن النظام الجمهورى مسئول عن كل الشرور حتى التى لاعمل للناس فيها . أليست الجمهورية هى التى استحدثت هذه العلل التى تصيب الكروم فتفسدها ! ! وقد أقبلت هذه المرأة تستشير أستاذنا الزراعى فى أحدها ! . ولكن الأستاذ قد أبطأ ، فتنصرفان على أن تعودا بعد حين .

ويُقْبِل الأستاذ ويُقْبِل البارون ويتحدّثان . فنفهم من حديثهما أن البارون لم يكد يرى « ليونتين » حتى فتن بها واعتزم أن يتخذها له زوجاً ، تردّد فى ذلك أياماً ثم صحّت عزيمته فتزوجها ، لم يحفل بأحد ولم يدعُ أحداً ، وهو سعيد بهذا الزواج منذ ثلاثة أشهر ، وامرأته سعيدة أيضاً . وهو يلتمس لهـا العذر فيما اقترفت من إثم قبل أن يتزوجها ، فذنب ذلك على زوجها الأول ، ذلك الرجل المجرم الذى كان يشرب حتى إذا سكر عاد إلى بيته فأذاق امرأته ألوان العذاب . وآية ذلك أن المحكمة حكمت عليه بالطلاق لا على زوجه . هو إذاً راض عن حظه مغتبط به ، وصاحبه الأستاذ يهنئه ويغبطه ، وهو يعلّم زوجه اصطناع البسكليت ، وهو معجب بجمالها فيما تتخذ لهذا الغرض من زىّ ، معجب بذكائها وسرعة إتقانها لهذا الفن .

ثم نفهم من حديثهما أنهُ ساع لصديقه الأستاذ فى أن ينال أحد الأوسمة ، وأنهُ لا بد لذلك من عريضة يوقعها أعيان الإقليم . والأستاذ

قد هيأ هذه العريضة وسيمضيها البارون ويحمل عمته على إمضائها ، فسيكون لذلك أثره ، وإن كانت عمته ساخطة عليه مغاضبة له . وقد أقبلت « ليونتين » فى زىّ البسكليت جميلة خلاّبة مبتسمة للحياة ، راضية عن كل شىء ، حلوة الحديث ، لذيذة الفكاهة ، فتتحدث حيناً ، ونفهم من الحديث أن زوجها مضطر إلى أن يغيب عنها ساعات تقضيها هى فى درس البسكليت ، ثم ينصرف الزوج حيناً ، فإذا بين الأستاذ وبين « ليونتين » إثم قديم العهد لأنها أحبته منذ رأته وأحبها هو أيضا . ولكنه خائف ، أما هى فلا يعرف الخوف إلى نفسها سبيلاً . وانظر إليها قد أخذت تداعبه ، وهو يجيبها كارهاً ، ثم تدنو منه وما تزال تدنو حتى تكون بين ذراعيه ، وهو يقبّلها وهى تقبّله ، وهى تُكرههُ على أن يضرب لها موعداً إذا انصرف زوجها ، وهو يتأبّى ، ولكنها تكرهه وتلح عليه وتقول له فى قبلة : « إلى اللقاء بعد حين » . وفى أثناء ذلك يفتح الباب وتظهر الشيخة ، فإذا رأت هذا المنظر انصرفت مغضبة وافترق العاشقان ولم يحسا شيئاً .

ثم يعود البارون وتنصرف امرأته إلى البسكليت . وبينا هو فى حديث مع الأستاذ إذ تستأذن الشيخة فتدخل فى جد وحشمة ، وتطلب الى الأستاذ أن يزور زراعتها غداً أو بعد غد وتهم بالانصراف . ولكن ابن أخيها يستوقفها ويريد أن يتقرب اليها ، فيتركهما الأستاذ حيناً فيتحدثان . ونفهم من حديثهما أنها لا تعترف بزواجه ، وانما ترى أنهُ

اتخذ له خليلة وليس فى ذلك بأس . غير أن الشاب يطلب اليها توقيع العريضة فتأبى فى غضب لأنها تزدرى هذا الأستاذ ، وكيف لا تزدريه وقد رأت بين ذراعيه منذ حين امرأة جميلة فى زىٍّ البسكليت ما ترى إلا أنها من مومسات باريس !! يدهش الشاب لأنه كان يرى صديقه الأستاذ أبعد الناس عن العبث واللهو . فإذا ألح فى هذا الدهش وألحت عمته فى الوصف والتفصيل ، تطرق الشك إليه فيستوصف عمتهُ ، فتفصل الوصف، فيستحيل الشك يقيناً ، وإذ هو مصعوق ، وإذا عمته تقول فى سخرية : أخشى أن أكون قد أسأت إليك عن غير عمد . ولكن صاحبنا يريد أن ينتقم وهو يريد البينة قبل الانتقام ، وقد أخبرتهُ عمتهُ أن العاشقين تواعدا على أن يلتقيا بعد حين ، فيخرج وتخرج معهُ عمتهُ للاستعانة بصاحب الشرطة . وقد عاد الأستاذ إلى غرفته ، وهو يحدث نفسه كارهاً لهذا الموعد ، معلناً أن الدرس والمرأة لا يجتمعان . ولكن المرأة قد أقبلت فتداعب وتعبث حتى تصرف الرجل عن درسه ، ثم تنسل فى لطف إلى غرفة النوم وقد تجردت من ثيابها ، وهى تدعو إليها صاحبها فى دعابة ورشاقة ، وصاحبها يقبل عليها كارهاً . ولكنهُ يسمع وقع أقدام ، ثم يحس طرق الباب ، ثم يستيقن أنه الزوج قد أقبل ومعه صاحب الشرطة ، فيضطرب ويشتد اضطرابه ، ويحاول أن يحمل صاحبتهُ على الفرار . ولكن كيف تفر وهى عريانة !! . أما هى فهادئة مطمئنة ، تأمر صاحبها أن يفتح الباب . وقد فتح الباب ، ودخل

الزوج ، ودخل صاحب الشرطة ومعهُ كاتبهُ . ولكننا لا نكاد نرى صاحب الشرطة حتى يأخذنا الدهش ثم الإغراق فى الضحك ؛ ذلك أن صاحب الشرطة هو « أدولف ديبوا » الزوج الأول لليونتين ، أرادت المصادفة أن يكون مدير الشرطة فى هذه المدينة منذ أيام .

يأخذ صاحب الشرطة فى كتابة المحضر مستعيناً بكاتبه ، حتى إذا أراد أن يرى المرأة الخائنة أنبىء أنهـا لا تستطيع أن تظهر له فيسجل ذلك فى المحضر . و بعد حين يفتح باب الغرفة وتخرج « ليونتين» . . . فقدَّر دهشها ، وقدِّر بنوع خاص دهش صاحب الشرطة وقد رأى امرأته فى هذا الموقف . ولكنهما يجتهدان فى اخفاء هذا الدهش ، ويحاول الرجل أن يمضى فى عمـله فيأخذ فى سؤال « ليونتين » فتطلب إليه « ليونتين » أن يأذن لها فى توجيه الـكلام لحظة الى هذين الرجلين زوجها وعاشقها . فتسأل الزوج ماذا يريد ؟ يجيبها الطلاق فى أسرع وقت . وتسأل الأستاذ ماذا يريد أن يصنع ؟ فيجيب أنه لا يريد شيئاً ، فهو رجل درس ، وكل ما يعنيه أن ينصرف إلى علمه . هو إذاً متخل عنها . . . هو اذاً رجل لا شرف له ولا مروءة وقد كانت أحبته لأنها كانت ترى فيه جدًّا واستقامة . أما زوجها فيسألها ماذا تريد أن تصنع هى ؟ تجيبه وما يعنيك من هذا ؟ فيقول : انك ستظلين زوجى حتى يفرق الطلاق بيننا ، فمن الحق أن أعرف الامَ تصيرين . عجيب ! ساذهب إلى حيث كنت ، الى بيت عمى فهو خير كريم . ولا يكاد

صاحب الشرطة يسمع هذا حتى يملكه غضب لا حدَّ له ، فهو يحس أن «ليونتين» ستعود اليه ، وهو انما ترك باريس فراراً من «ليونتين» وهو يريد أن يتقيها ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وانظر اليه يأبى أن يمضى فى كتابة المحضر على وجهه ، ويعلن أنه لم ير إثماً وانما رأى سيدة محتشمة عند الأستاذ . فلا تسل عن سخط الزوج وحنقه . ولكن صاحب الشرطة ملح ، ثم ينتهى الأمر بأن يطلب صاحب الشرطة الى الزوج أن يتحدثا لحظة على خلوة ، فيتفرق عنهما الناس ، ويأخذ « أدولف » فى النصح لهذا الشاب بأن يعدل عن الطلاق ، وما يزال به يبغِّض إليه الطلاق ويحبب إليه العفو والمغفرة حتى بلغ منه ما أراد . وقد عادت المرأة ، فيتركهما لحظة يتم فيها الوفاق بينهما ، ويعود وقد استقام له الأمر كما كان يحب ، فلن يكون طلاق ولا خصومة ، ولن تلجأ اليه « ليونتين » . ولكن الزوجين قد أحباه لأنه أصلح بينهما وأحبهُ الزوج بنوع خاص ، فهو يدعوه إلى العشاء ، وامرأته تلح فى الدعوة . وإذاً فقد كان يريد أن يفلت من « ليونتين » فأصبح مكرهاً على عشرة « ليونتين » .

* * *

فاذا كان الفصل الثالث فقد مضت أيام على هذه الحادثة ، ونحن فى قصر البارون نرى « ليونتين » تؤنب خدمها فى رفق وفكاهة ، وقد أقبل « أدولف » مدعواً إلى الغداء ، فتتلقاه « ليونتين » مبتهجة

بلقائه وهو ضيق الصدر بهذه المودة ، ضيق الصدر خاصة بمكانه من البارون الذى يجهل كل شىء مما كان بين « ادولف » و « ليونتين » وهو ينبىء « ليونتين » بأنه قد غير اسمه الخاص عندما سأله عنه البارون ، و بأنه يلتمس طريقاً للانتقال من هذه المدينة حتى لا يضطر إلى معاشرة الزوجين . ولكن «ليونتين» لا تريد أن يفارقهما ، وهى لا ترى فى شىء مما كان بأساً . ونحن نحس فى كل أحاديثها أن قد تغيرت حقاً منذ تلك الحادثة التى رأيتها فى الفصل الثانى ، تغيرت فأصبحت خيرة طيبة النفس ، طاهرة الطبع شديدة البغض للاثم والخيانة ، محبة لزوجها ، شديدة الحرص على الوفاء له ، عافية عن الآثمين متجاوزة عن آثامهم . وقد أقبل الزوج فاذا هو أشد من امرأته حباً لأدولف ووفاء له واعترافاً بجميله . والرجل مضطرب ضيق الصدر بين هذين الزوجين . ولكن حب البارون لأدولف لا حد له ، فهو يريد أن يلتمس له زوجاً و يضن به على هذه الحياة التى تنغصها الوحدة ، وامرأته تشاركه فى هذا الرأى . وما هى إلا لحظة حتى يهتدى الزوجان إلى القرينة الملائمة . وما الذى يمنع « أدولف » من أن يتزوج ابنة عم البارون « أورتنس » فهى جميلة غنية خيرة ! أما أدولف فلا يرى فى هذا إلا نوعاً من المزاح .

ولكن « أورتنس » قد أقبلت ، فلا تكاد ترى « أدولف » حتى تدهش . فهو الذى أنقذها من الموت . وما يكاد ابن عمها يخلو اليها و يحدثها فى هذا الزواج حتى تظهر الرضا والاطمئنان ، فالقوم جميعاً

سعداء ، ولا سيما بعد أن أقبل النائب « بلانتين » يزور البارون فيلقى صديقه «أدولف» وصاحبته «ليونتين» ويكون فى هذا كله اضطراب غريب مصدره حرص «أدولف» على ألا يظهر اسمه الحقيقى ، وحرصه أيضاً على ألا تظهر المعرفة و « ليونتين » . وتكلف هؤلاء القوم جميعاً الحيلة فى إخفاء الأمر على البارون . هم ينجحون فى هذا التكلف ، وهم كما قلت لك سعداء ينتظرون الدعوة إلى المائدة . ولكن المصادفة لم تفرغ بعد من عملها ، فقد أقبلت عمة البارون الشيخة ، فخلت إلى ابن أخيها لحظة تسأله عن أمر الطلاق ، فلا يستطيع أن يخبرها بأن قد تمّ الصلح بينه و بين امرأته ، فيزعم لها أن القضية تجرى مجراها . ولكن الشيخة قلقة لأن ابنة أخيها « أورتنس » مشغوفة بحب هذا الرجل الشرطى الذى أنقذها من الموت ، وهى تخشى أن ينتهى هذا الحب إلى الزواج . فاذا سألها ابن أخيها وأىّ بأس فى ذلك ؟ أجابت انها الفضيحة ، فإن هذا الرجل قد طلق امرأته . فيدهش الشاب لأنهُ كان يقدر أن صاحبه لم يتزوج ، فتؤكد له عمته ذلك وتخرج له وثيقة استخلصتها من المحكمة فى باريس وفيها أن هذا الرجل واسمه « أدولف ديبوا » قد كان سكيراً يضرب امرأته ، فطلقت امرأته عليه ، ثم أثبتت لابن أخيها أن هذا الرجل هو بعينه الذى عين منذ أيام مديراً للشرطة . فقدّر أنت دهش الشاب واضطرابه حين يعلم أن صاحب الشرطة هو الزوج الأول لامرأته ، واسمع لعمته تقول له الآن كما قالت له فى الفصل الثانى : أخشى أن

أكون قد أسأت اليك عن غير عمد يا ابن أخى ! . وقد انصرفت عنه وتركته فى هياج واضطراب . فانظر اليه وقد دخل عليه « أدولف » ومعه « ليونتين » كيف يستقبل صاحبه مضطرباً ساخطاً صاخباً ، يعلن إليه اسمهُ وصناعته الأولى فى باريس وقضيته مع امرأته . . . والرجل يعترف بكل شىء فى وجوم ودهش ، حتى اذا فرغ من هذا أعلنت « ليونتين » أن « أدولف » لم يكن فى يوم من أيام حياته سكيراً ولا شريراً ، لم يضربها ولم يسىء اليها ، وإنما هى التى خانته فأراد الطلاق، وكره أن يكون الحكم عليها فقبل أن يتهم نفسه وأن يقع الطلاق عليه هو ، ثم تتبع امرأته بعد الطلاق بالبر والعطف ، حتى كان هذا الحادث الأخير . وانظر اليها ترفق بزوجها وتترضاه فى خفة ودعابة وطهر حتى تأخذ يده فتضعها فى يد زوجها الأول . وتدخل « أورتنس » ومعها النائب يستعجلان الغداء . فيضع البارون ذراع « أدولف » فى ذراع « أورتنس » وقد سماه باسمه هذه المرة . فاذا سمع النائب ذلك أظهر الدهش ، فينبئه صاحبه أن قد عرف الرجل كل شىء وهم يتقدمون إلى المائدة والخادم مقبلة وفى يدها زهر تقدمه الى سيدتها كأنما تهدى هذا الزهر الى هذين الخطيبين .

مايو ١٩٢٧

الملهى

قصة تمثيلية بقلم الكاتب الفرنسى « مارسل بانيول »

ليس هذا العنوان ترجمة دقيقة للعنوان الفرنسى ، وربما لم يكن ترجمة مقاربة . فالعنوان الفرنسى يشير إلى نوع خاص من اللهو ، هو هذا الضجيج الأمريكى الذى شاع فى الحانات والملاهى والذى يسمونه الجاز باند . وإذا كنت لم أُعْنَ بالترجمة الدقيقة لهذا العنوان ، فذلك لأن هذا العنوان نفسه لا يدل على القصة ولا يختصرها ولا يدل على جزء مهم من أجزائها ، إنما يدل على شىء إضافى مرَّ فى القصة عرضاً . ومن حقنا أن نتساءل : لِمَ اتخذ الكاتب لقصته هذا العنوان ؟ وما باله لم يلتمس لها عنواناً يلائم موضوعها أو أشخاصها ملاءمة صحيحة ؟ على أن هذه الخصلة ليست وحدها الخصلة الغريبة فى هذه القصة ، فالقصة كلها غريبة فى حقيقة الأمر : غريبة فى تصورها ، غريبة فى عرضها ، غريبة فى نتيجتها ، ولكنها على ذلك قيّمة لذيذة ، أو قل إنها لذلك نفسه قيمة لذيذة . والحق أنك فى حاجة إلى أن تقرأ هذه القصة مرتين ، وربما احتجت إلى أن تقرأها أكثر من مرتين ، لا لتفهمها ففهمها سهل

يسير ، ولا لتشعر بقيمتها الفنية فأنت شاعر بهذه القيمة متى بدأت فى القراءة ، ولكن لتتبين الغرض الذى إليه قصد الكاتب حين وضع قصته . ولست أدرى أمن اليسير بعد القراءة مرة أو مرتين أو ثلاثاً أن تقطع بالغرض الذى قصد إليه الكاتب . ومن يدرى ! لعله لم يقصد إلى غرض بعينه ، ولم يفكر إلا فى أن يعرض عليك قصته كما تصورها ، تاركاً لك أن تستنبط منها ما تشاء .

ومهما يكن من شىء فأنت مضطر إلى أن تلاحظ فى هذه القصة أمرين : أحدهما نعى شديد على العلماء الذين يقفون حياتهم على العلم وحده وعلى العلوم التى تمس الآداب بنوع خاص . فموضوع القصة رجل من هؤلاء العلماء وقف حياته على اللغة اليونانية . والكاتب لا يعرض علينا أمر هذا العالم وحده ، ولكنه يعرض علينا من قريب أو بعيد أمر قوم آخرين يعملون فى كلية من كليات الآداب منهم الأستاذ ومنهم الطالب . والثانى صراع عنيف بين الحياة العلمية الجافة والحياة العملية التى لا تخلو من لذة ودعة ولين . فهل قصد الكاتب إلى أن يبغّض إلى الناس هذه الحياة العلمية الخشنة التى يسرف فيها بعض العلماء حتى يجعلوها أشبه برهبانية الرهبان ونسك الناسكين ، مزدرين فى سبيلها عواطف النفس وأهواءها ، وحاجات الجسم وما تستتبعه هذه الحاجات من لذة وألم ؟ أم هل قصد الكاتب إلى أن يسخر من هذا اللون من ألوان البحث العلمى ، ويبين أنه إذا كان

هناك نوع من العلم خليق بأن يقف الإنسان عليه حياته فليس هو هذا النوع الذى يفرغ له الباحثون عن اللغات وعن اللغات القديمة بنوع خاص ؟ أم هل قصد إلى أن يسخر من البحث العلمى بوجه عام ؟ أخشى أن يكون قصد إلى هذا كله فى وقت واحد ، أخشى أن يكون قد قصد إلى ما يقصد إليه الشبان فى هذا العصر الحديث ، ولا سيما بعد انتهاء الحرب الكبرى، من تمجيد الحياة العملية والإعراض عن هذه الحياة العلمية الخالصة، بحجة أن هذه الحياة العملية هى وحدها المنتجة، وهى الملائمة لطبيعة الأشياء وحاجات الناس ومذهب المنفعة بعبارة موجزة .

ومهما يكن الغرض الذى قصد إليه الكاتب فإن قصته لا تخلو من لذة قوية ونفع كثير . ولو لم يكن للكاتب إلا هؤلاء الأشخاص الذين قد صوَّرهم فأحسن تصويرهم لكانت قصته خليقة بالعناية ، فكيف وقد وفِّق فوق هذا لطائفة أخرى من المعانى تبشر بأن سيكون له فى فن التمثيل مستقبل لا بأس به .

على أنى لا أحب أن أبدأ فى تحليل القصة وعرض أشخاصها عليك قبل أن ألاحظ أن الفصل الثانى من هذه القصة خليق أن يمحى ، فليست إليه حاجة فنيـة ، وربما كان من الإتقان الفنى أن يترك الكاتب للقارىء أو للنظارة تقدير ما جاء فيه . على أن هذا الفصل نفسه لا يخلو من فكاهة رائقة وتفكير عميق . ولعل هذا هو الذى حمل الكاتب على أن يضحى بالفن التمثيلى فى سبيل الفن الأدبى الخالص .

* * *

الأشخاص الذين يستحقون أن يُعْرَضوا فى هذه القصة أربعة ، أولهم جان بليز وهو رجل فى السابعة والخمسين من عمره ، أنفق حياته كلها فى درس اللغة اليونانية ، ووفق فى هسذا الدرس إلى حظ من الفوز فتن به الناس جميعاً فنال أوسمة الشرف كلها من حكومته الفرنسية ، وهو يوشك أن ينتخب عضواً فى المجمع العلمى وأن يختار أستاذاً لليونانية فى السوربون . وهو فى سبيل هذا المجد العلمى قد أخذ نفسه بألوان من الشدة فى حياته ، فرفض الحب رفضاً قاطعاً وانصرف عن النساء وعن لذات الحياة كلها . ثم لم يكتف بهذا بل خيل إليه أنه من هذه الطائفة المختارة التى خلقت لتقود الإنسانية وترقيها . وهو مطمئن إلى هذه المكانة ، مقتنع بأنه قد أصبح من الخالدين ، وهو يزدرى الحياة العملية والذين يضطربون فيها ، لا يؤمن لهم إلا بأنهم خدم يهيئون للعلماء حاجاتهم فيعينونهم على تأدية ما يؤدونه من نفع هذا النوع الإنسانى . وهو بهذا كله مؤمن ، مقتنع بإيمانه ، لا يقبل فيه جدالاً ولا نزاعاً . ولكن نفسه على شدة اقتناعها بهذا كله لم تستطع أن تقهر حسه ولا أن تفُلّه ولا أن تلطف من حدة شعوره فهو فى جهاد متصل بين العلم والهوى . وأكبر الظن أنه إنما أمعن فى العناية بالعلم ووقف حياته عليه حين أحس الإخفاق فى الحب ، وأشفق ألا يعجب النساء . وآية ذلك أن هذا الجهاد قد بلغ من العنف أن آذاه

وأضناه وظهرت آثار هذا الأذى فى مجموعته العصبية التى نشعر منذ الفصل الأول بأنها قد أخذت تضعف وتضطرب حتى أشفقت عليه خادمه أن يكون قد أصيب بأحد أمراض المعدة . وقد وفق الكاتب توفيقاً غريباً لأن يعرض علينا شخصية هذا الرجل عرضاً قوياً ، فقد ألف هذا الرجل من شخصين مختلفين : أحدهما هو هذا العالم الذى عرضته عليك ، والآخر شاب يمثل هذا الرجل حين كان طالباً وحين كانت نفسه تنازعه إلى الحب والنساء ، وجعل الصراع بين هذين الشخصين مادياً خارجياً يرى بالعين .

الشخص الثانى عميد كلية الآداب ، وهو رجل متقدم السن عالم ولكن فيه عيوب أمثاله من العلماء الذين يشغلون المناصب ويحرصون على أن يرضى عنهم الجمهور والرؤساء ؛ فهو حسود مسرف فى الحسد ، وهو منافق غال فى النفاق ، وهو إلى ذلك جبان عظيم الحظ من الجبن ، وهو يتقن العلم ويظهر الإيمان به ولكنهُ فى حقيقة الأمر يزدريه ويشك فيه .

الشخص الثالث فتاة فى ريعان الشباب هى سسيل بواسيه طالبة فى الجامعة تدرس اللاتينية واليونانية ، جميلة ولكنها فقيرة ، تعنى بأن تعيش ، ولا تكاد تفكر فيما يفكر فيه الفتيات من حب أو لهو ، مستعدة كل الاستعداد للتضحية ، ولكنها لا تكاد تحس الحب حتى تظهر فيها الأثرة ويظهر عجزها عن التضحية .

الشخص الرابع فتى صربى هو ستيبانوفيتش كان من جنود الحرب الكبرى ، أبلى فيها بلاء الأبطال ، فلما انتهت عاد إلى مهنة التعليم التى كان يعيش منها ، ثم بدا له فجاء إلى فرنسا يتم درس اليونانية ، وهو كبير النفس صبور محتمل للمكروه فى سبيل العلم ، لا يتردد فى أن يتخذ صناعة الحمال فى محطة السكة الحديدية ليتمكن من الدرس . وهو رقيق النفس قوى العاطفة ، ولكنه يعرف كيف يكتم حبه ، فإذا ظهر له أنه يستطيع أن يعلن هذا الحب دون أن يتجاوز الحق والعدل مضى فى ذلك غير مشفق ولا متردد ولا محجم عن أشنع أنواع القسوة .

هؤلاء هم أشخاص القصة ، فلننظر كيف يضطربون فيها .

* * *

نحن فى مدينة جامعية من مدن الأقاليم ، فى دارجان بليز آخر النهار ، وقد ذهب الأستاذ إلى الجامعة ليلقى درسه . فإذا رفع الستار رأينا خادمه تتحدث إلى صديق أقبل ليزوره ومعهما عميد كلية الآداب قد جاء وكأنه يحمل نذير سوء . ثم ينصرف هذا العميد منذراً بعودته . فإذا خلت الخادم إلى صديق سيدها أخبرته بأن سيدها متعب مضطرب الأعصاب قد يتحدث إلى نفسه إذا جنه الليل ، وعللت ذلك باضطراب فى المعدة ، وعلل الصديق ذلك بالوحدة .

ثم يأتى الأستاذ فإذا كانت بينه و بين صديقه التحية المألوفة وجلسا يتحدثان فهمنا أن هذا الأستاذ قد ذهب مرة إلى مصر فوجد فى بعض

أديرتها نسخة قديمة كتب عليها الإنجيل باللغة اللاتينية ، ثم تبين أنه قد كان مكتوباً قبل الإنجيل شيء باللغة اليونانية ، فمحا الإنجيل وأخضع نسخته لعمل كيميائى مكنه من كشف الأصل لهذا النص اليونانى فإذا هو كتاب من كتب أفلاطون يقال له « فايتون » . ولكن هذا الأصل كان مضطرباً قد عبث به الزمان فلم تبق منه إلاّ كلمات وجمل منها التام ومنها المبتور ، فجدّ فى ذلك حتى أصلحه وأتمه . وقد أنفق فى هذا العمل أعواماً طوالاً ، ثم نشره فاضطرب له العلماء فى أقطار الأرض وكادوا يُجمعون على أن هذا الأستاذ قد أخرج للناس أقوم أثر من آثار أفلاطون من الوجهة اللغوية والأدبية والفلسفية . وعرفت الحكومة الفرنسية لهذا الأستاذ حقه فكافأته بالأوسمة ، وهى تريد أن تنقله إلى السوربون ، وهو يوشك أن يكون عضواً فى المجمع العلمى . ويحدّث بهذا كله صديقه الذى لا يكاد يفهم منه شيئاً لأنه يعمل فى التجارة . فإذا ظهر منه عجزه عن الفهم كانت بينه و بين صاحبه مناقشة رأينا منها كبرياء الأستاذ بعلمه وازدراءه لغيره من الحياة والأحياء .

و بينا هما كذلك إذ تقبل سسيل بواسيه إحدى تلاميذ الأستاذ تريد أن تستعير من أستاذها كتاباً فيعيرها اياه . ولكنهما لا يكادان يتحدثان حتى نحس من الأستاذ ميلاً خاصاً الى هذه الفتاة وعطفاً عليها ومن الفتاة اعجاباً بالأستاذ . والفتاة لم تأت فى حقيقة الأمر لتستعير الكتاب ، انما جاءت لتعرض على أستاذها أن رفيقاً لها من الطلبة هو

ستيبانوفيتش قد ضاقت به سبل الحياة فهو مضطر الى أن يعود الى وطنه ، وقد تعاون رفاقه فيما بينهم فجمعوا له مقداراً من المال ، ولكنهم لا يعرفون كيف يدفعونه اليه لأنه شديد الكبرياء ، فهم يتوسلون بالأستاذ ليؤدى إليه هذا المقدار . فإذا سمع الأستاذ هذا ، رد المقدار إلى الفتاة ووعدها بأن يصلح من أمر الفتى ، ثم أخذ يلومها لأنها لم تحسن كتابة الموضوع الذى طلب إليها كتابته باليونانية . وتنصرف الفتاة ، ويأتى الفتى الصربى مودّعاً الأستاذ ، فلا يمكّنه الأستاذ من أن يتكلم ، بل يفجؤه بأن يعلن إليه أنه سيطبع كتاباً من كتب كسينوفون ، وقد أعد لهذا الكتاب شرحاً وتعليقاً ، ولكن أوراقه فى حاجة إلى الترتيب والنسخ ، فهو يكلفه هذا العمل ويأجره عليه ويدفع إليه بعض هذا الأجر مقدماً والفتى مغتبط بهذا لأنه يمكّنه من إتمام الدرس وتأدية الامتحان دون أن يؤذى كبرياءه .

فإذا خرج الفتى وهمّ الأستاذ أن يستأنف حديثه مع صديقه أقبل عميد الكلية ، فيتلقاه الأستاذ عابساً منقبضاً ، ويسرع العميد فينبئه بأنه جاء يحمل إليه نبأ سيئاً ويأخذ فى تعزينه وتشجيعه . فإذا ألحّ عليه ليعرف هذا النبأ أعلن إليه أن العالم الإنجليزى كولسون قد ذهب إلى مصر واستكشف فيها نسخة من كتابه « فايتون » وكانت نسخة صحيحة واضحة لا عيب فيها ، وظهر من قراءة هذه النسخة أولاً أن الكتاب ليس لأفلاطون وإنما هو لنحوى من أهل الاسكندرية كان

يقلد أفلاطون فى القرن الأول للمسيح أى بعد أفلاطون بأربعة قرون . ثانياً أن كل ما اقترحه الأستاذ لإصلاح النص وتكميل جمله وألفاظه وتصحيحها خطأ . وهذا العالم الإنجليزى ينشر نسخته التى استكشفها ولكنه يرسل منها مسودة ليقرأها الأستاذ قبل أن تظهر للناس . ثم يدفع العميد هذه المُسوَدَّة إلى الأستاذ ، ويأخذ هذا فى قراءتها والاضطراب يملكه شيئاً فشيئاً ، وقد ظهر ذلك عليه ، فنهض صديقه ، وخرج العميد ليتركا الرجل منفرداً إلى مُسوَدّته .

وفى أثناء ذلك يظهر فتى كأنما انشق عنه الحائط وهو رثّ شاحب ، فيقف خلف الأستاذ وينظر محزوناً كأنه يقرأ المسودة .

***

فاذا كان الفصل الثانى فقد مضت أيام على هذه القصة وظهر أمرها للناس ، وافتضح الأستاذ فضيحة منكرة ، وانقسم فيه العلماء الذين كانوا يعجبون به ، فمنهم من يتهمه بالجهل المنكر ، ومنهم من يتهمه بالتدليس القبيح . وقد كانت هذه الفضيحة صدمة للرجل حالت بينه وبين الذهاب الى الجامعة أياماً . وكأنه قد استرد قوته فعزم أن يستأنف دروسه ، وأقبل الطلبة مضطربين يريدون أن يروه وأن يسمعوه وهم فى أمره مختلفون اختلاف العلماء والجمهور . ولكن العميد يحاول أن يؤخر استئناف هذا الدرس ، فيغرى أحد الخدم بأن يصد الطلبة عن قاعة الدرس ، ويعلن إليهم أن الأستاذ قد أجل درسه ، ولكن بعض

الطلبة يأبون إلا أن يقتحموا غرفة الدرس . وهم جلوس وقد رأى العميد أن لا بد من استئناف الدرس ، فأقبل يخطب الطلبة يعيب أستاذهم وكأنه يرثى له ، ويغريهم به وكأنه يعطفهم عليه .

ويأتى الأستاذ فيتخذ ثوبه الرسمى ويجلس الى مائدته ، وإذا الفتى الذى رأيناه فى آخر الفصل الأول قد ظهر ووقف فى آخر الغرفة تجاه الأستاذ ، وبدأ الأستاذ يتكلم فاذا هو يعترف بأنه قد أخطأ فى كل شىء فليس الكتاب لأفلاطون ، وليس تصحيحه لهذا الكتاب حقاً ولا مقارباً ، وإنما يشتمل على أكثر من ثمانمائة غلطة . ولكن هذا الكتاب المزوَّر المملوء بالخطأ قد خدع الذين يعنون باليونانية جميعاً سواء منهم اللغويون والأدباء والفلاسفة ، كلهم قبله ، وكلهم أظهر الإعجاب به . وينتقل الأستاذ من هذا الى أن العلم ليس شيئاً ، وإنما هو وهم فى وهم وضلال فى ضلال ، وأن العالم أشبه الناس بالرجل الذى اهتدى إلى كنز فى مكان مظلم فاتخذ المصباح ليصل اليه ، ولكنه شغل بالمصباح عن الكنز ، فأخذ يرفع ذبالته حيناً ويخفضها حيناً آخر . وليس العقل الإنسانى إلا هذا المصباح الذى يشغل العلماء عن الحياة وما فيها من لذة ومتاع ، وإذا الأستاذ يحث تلاميذه على الإعراض عن العلم والاستمتاع بلذات الحياة ، ويمضى فى ذم العلم ومدح اللهو إلى حيث يوشك أن يكون متصوفاً ، ثم ينهض فيلقى عنه ثوب الأستاذية ، ويعلن الى تلاميذه أنه مستقيل .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى بيت الأستاذ مساء هذا اليوم ، وقد تغيرت غرفته نخلت من الكتب خلواً تاماً . وهو جالس الى مكتبه ينظر فى أوراق ثم يمزقها ، وقد جاء العميد يسأله عن كلمات زعموا أنه قالها فى درسه وهى لا تليق بالعالم ولا بالأستاذ ، فلا ينكرها بل يزيد عليها و يرفع إلى العميد استقالته من الأستاذية . و يلح العميد عليه مخلصاً فى أن يسترد هذه الاستقالة فيأبى . وهنا تنكشف لنا نفس العميد ، فهو يتخذ العلم ورياسة كلية الآداب صناعة لا أكثر ولا أقل ، وهو لا يؤمن بعلم ولا يؤمن بجامعة و إنما يؤمن بالحياة : بامرأته وولده . وهو يشبه العلماء حين يظفرون بالحق فيفرحون ، أو يردون عنه فيحزنون ، بالأطفال الذين يتحاربون لاعبين فيخيل اليهم أنهم يجدّون وإذا هم يطلبون الفوز و يفرحون به حقاً ويكرهون الهزيمة و يحزنون لها حقاً . ولكن الأستاذ مصر على استقالته فينصرف عنه العميد . و يخلو الرجل إلى نفسه حيناً ، و إذا الشاب الذى رأينا فى الفصلين الماضيين قد مثل أمامه ، فيكون بينه و بين الأستاذ حوار بديع مؤثر حقاً . فليس هذا الشاب فى حقيقة الأمر إلا الأستاذ حين كان طالباً وحين كان يكره نفسه على العلم و يصرفها عن الحب واللهو . وقد تمثل هذا الشباب القوى الفتى المحروم فى شخص هذا الفتى وأقبل يعرض على الشيخ ذكرى هذا الحرمان والشيخ يدافعه ثم لا يلبث أن يمضى معه فى الذكرى . فانظر

إليه حين كان يستيقظ قبل آخر الليل فيقبل على اليونانية يقرأ ويكتب ويستظهر . وانظر إليه كيف كان يغدو مع الصبح فيسلك إلى الجامعة أبعد الطرق عن الفتنة منصرفاً عن ضوء الشمس وجمال الربيع وابتهاج المدينة . وانظر إليه كيف كان يلوى وجهه عن هذه الفتاة الحسناء تمر الى جانبه . وانظر إليه كيف أحب وعبث الحب بقلبه ولكنه مع ذلك أبى أن يعلن حبه وأخذ يخادع نفسه عن هذا الحب ، وأخذ يتجاهل ميل صاحبته إليه فلا يحييها ولا يظهر الميل إليها . وانظر إليه مع ذلك كيف أهوى مرة إلى زهرة ألقتها هذه الفتاة فاحتفظ بها منذ عشرين سنة فهى الآن جافة ذابلة ولكنه لا يكاد يلمسها حتى تتفتح وتسترد نضرتها . ثم انظر إليه كيف يعتذر الى شبابه فيزعم أنه لم يكن جميلا ولا وسيماً ولا جذاباً للنساء . ولكن حركة يأتيها الفتى فإذا هو جميل وسيم حسن الطلعة مقتنع بأنه كان يستطيع أن يظفر بحب النساء . يعرض الفتى على الشيخ شبابه وما صنع فيه من لذة وما أهمل فيه من فرصة ، والشيخ يضطرب عليه شيئاً فشيئاً حتى يدنو من الجنون . وإذا هو يستغيث ، فتقبل الخادم فلا ترى أحداً ويستخزى الشيخ .

ولكن هذه سسيل قد أقبلت تعلن إلى الاستاذ باسمها وباسم رفاقها دهشهم مما سمعوا ، فيؤكد الأستاذ أنه لم يكن مازحاً ولاعابثاً ، ويعلن إليها أنه مستقيل ، فتلح عليه فى أن يسترد استقالته فيأبى . ويكون بينهما حوار نفهم منه أنه يحب الفتاة ويود أن يجد لحبه صدى فى نفسها

وهو يتلمس هذا الصدى فلا يجده فهو يضطرب بين اللين والشدة حتى إذا استيأس ترك الفتاة تنصرف . ولا يكاد يخلو الى نفسه حتى يعود إليه الفتى فيلومه لوماً عنيفاً لأنه يحب هذه الفتاة وقد تركها تنصرف وقد كان يستطيع أن يعلن إليها حبه ، فينكر هذا الحب ، ثم يعترف به ، ثم يعتذر عن إحجامه بأنه متقدم السن وقد ظهرت عليه آفات الكبر ولكن الفتى يقنعه بأنه ما زال محتفظاً بقوته قادراً على أن يستمتع بالحياة ، والفتاة عائدة بعد حين لأنها نسيت حقيبتها ، وهى إنما نسيتها لأنها تحب الشيخ . فاذا عادت فيعلن إليها حبه ، وليكن بها رفيقاً ولها ملاطفاً وفى حديثه إليها لبقاً . وقد عادت الفتاة تلتمس حقيبتها ، فيدعوها إلى البقاء حيناً . وماهى إلا أن يتخذ طريقه إلى الحب فيعلنه إلى الفتاة ، فتدهش ويطلب إليها الزواج فتضطرب ثم تتردد ، ويكاد يستيئس منها ، فيعلن اليها هذا اليأس وأنه سيقتل نفسه ، فتشفق وتلين وتضعف ، فيدنو منها يريد أن يقبلها فتأبى وتفزع وتتراجع . فإذا رأى الفتى هذا قام مقامه فى هذه المداعبة والملاينة فظفر من الفتاة باللثمة التى يرجوها ، وإذا الفتاة مستأنسة مطمئنة قد جلست الى جانب الشيخ وأسندت رأسها إلى كتفه وهى تتنسم تلك الزهرة التى كانت جافة فعادت نضرة .

***

فاذا كان الفصل الرابع فقد مضت أيام على هذا ، وتم الاتفاق بين الشيخ والفتاة على أن تكون له زوجاً وعلى أن تقيم عنده أياماً ، ثم يسافران إلى حيث يقيم وصيها فيكون الزواج ، وسيسافران اليوم مع

الظهر . ونحن نرى الشيخ قوياً وسيماً حسن الزى مطمئناً إلى الحياة مبتسماً لها يمشى فى غرفته مشية المطمئن الراضى . ولكن العميد قد أقبل يعلن إليه أن الناس يتحدثون بمقام الفتاة عنده و ينكرون ذلك ، وقد كتبت فيه صحف السوء واتهمت كلية الآداب كلها بالعبث والمجون ، وذلك شر يرغّب الناس عن الكلية وأساتذتها ، وقد أصبحت الكلية حديث الناس وشك فيها الجمهور حتى إن امرأته قد أعلنت إليه أنها لن تدعه يذهب وحده إلى الكلية . ولكن الشيخ لا يحفل بكلام العميد ولا بكتابة الصحف ولا بسخط الجمهور ، فهو سعيد ، وهو يريد أن يتخذ الفتاة له زوجاً ، وهو سيبرح هذه المدينة وجامعتها وجمهورها .

فاذا انصرف العميد وأقبلت الخادم رأيناها ليست أقل من العميد سخطاً على الأستاذ . وكيف لا تسخط وهو شيخ يريد أن يقترن من فتاة ، وهو يحتجز الفتاة عنده وليست زوجاً ولا خطيبة ، والناس يتحدثون . أليست بائعة الفاكهة قد تحدثت إليها فى ذلك ساخرة ساخطة ! ! . ولكن الشيخ لا يحفل بها ولا ببائعة الفاكهة .

وانظر الى الفتى قد أقبل ، و يسأله الشيخ فيم جاء فيأخذ الفتى فى لومه : أليس يحب هذه الفتاة ؟ أليست هذه الفتاة تحبه ؟ فما باله لا يظفر منها بما يطمع فيه المحبون ؟ وما باله يدعها تقضى الليل وحيدة فى غرفتها وهو فى غرفته مسهد يضنيه الحب وتعذبه الشهوة ! . والفتى يغريه والشيخ يدافعه . ولكن انظر إليه كيف أثر فيه الإغراء ، فملكت الشهوة عليه

أمره ودنا من غرفة الفتاة تدفعه إليها الرغبة ، وكاد يدخل لولا بقية من شرف ووفاء ردّته عن ذلك ، فينهر الفتى ويكبح شهوته ويؤثر انتظار الزواج .

وهذه الفتاة قد أقبلت ، فيلقاها باسماً وترد تحيته فى دعة واطمئنان وتعرض عليه أن يكون الزواج فى هذه المدينة ، وأن يكون الفتى الصربى من شهود هذا الزواج . ثم تأخذ فى الثناء على الصربى وذكر بلائه فى الحرب ، فيحس أن فى نفسها من هذا الفتى شيئاً ، وقد خرج الأستاذ لبعض شأنه على أن يعود بعد حين .

وأقبل الفتى الصربى يريد أن يرد إلى الأستاذ كتابه وماله لأنه مسافر . ولا يكاد يتحدث إلى الفتاة حتى نفهم أنه لا يسافر زهداً فى العلم ولا عجزاً عن الإقامة ، وإنما يسافر يأساً وقنوطاً ، فهو يحب الفتاة ولكنه لم يعلن إليها حبه ، وقد مضى الوقت وجاء هذا الإعلان متأخراً . والفتاة تدافعه وتعتذر عن نفسها بضعف الشيخ ويأسه ، وأنها لا تعرف الحب ولم تحسه ، وقد أخذت نفسها بأن تعيش مع هذا الرجل كما تعيش الممرضة مع المريض . ويهم الفتى أن ينصرف ، فتمسكه ، ويمضيان فى الحوار ، حتى إذا استيقن أن لم يكن بينها وبين الشيخ إثم التمس الحب عندها فوجده فى قلبها تستحى له الفتاة وتتراجع .

وهذا الأستاذ قد عاد فيردُّ الفتى إليه كتابه وماله ، ثم يعلن إليه فى لين لا يخلو من القسوة أنه لا يستطيع أن يتزوج من هذه الفتاة . وقد تركتهما

الفتاة ، فيكون بينهما حوار عنيف فيه غيرة وحقد ، فيه غيرة الشباب الطامع فى الحياة يريد أن يستقبلها فى أمل ولذة . وفيه غيرة الشيخ اليأس يريد أن يظفر من الحياة بنصيب . وقد اتفقا على أن يحكّما الفتاة نفسها ، فتدعى ويرد عليها الشيخ حريتها ويسألها أن تختار بينهما . فتسأله : وإلى أى حال تصير وحدك ؟ . . . ويفهم الشيخ . فانظر إليه يائساً قد صعقه اليأس وانصرف عنه المحبان .

وانظر إلى الفتى قد ظهر يزجره وينهره ، وهو الآن لم يأت ناصحاً ولا رفيقاً ، وإنما جاء ثائراً محنقاً يريد أن ينتقم لشبابه المضيع . وقد تغير المسرح بعض الشىء ، وأخذنا نسمع ونرى ضجيج الرقص وحركته وأصحاب اللهو يسرفون فى لهوهم ، والمومسات يتهالكن على الناس فتنة وإغراء ، والفتى يدفع الشيخ إلى هذا اللهو ، ، والمومسات يدعونه إليهن وقد كاد الشيخ يقبل لولا بقية من شرف وكرامة فهو يأبى ويتراجع ، والفتى يدفعه منتهراً زاجراً منذراً معلناً إليه أنه قد أفسد عليه شبابه فلْيَفْسِدَنّ عليه شيخوخته ! . ولكن الشيخ يأبى . وانظر إليه قد اعتصم آخر الأمر بكتب بقيت له ، فهو يلتمس عند العلم العزاء بعد أن يئس من الحب . وكذلك فعل شاباً . ولكن الفتى ينازعه ويكون بينهما جهاد يُصْرَع له الشيخ . وتسمع الخادم فتسرع الى سيدها فاذا هو طريح فاذا أقبلت إليه لتسعفه نهض متثاقلاً وأمرها أن تلتمس الطبيب فتخرج ويعمد الشيخ الى مسدسه فيخرجه وهو يعتصم بالمسدس حيناً وبالكتاب

حيناً آخر . ولكن الفتى قد أقبل مرة أخرى ، وظهرت الحانة والرقص والفتى يدعو الشيخ اليهما فيأبى ، ويطلق مسدسه على الفتى فلا يصيب منه شيئاً . وانظر الى الفتى فهو الذى يتناول المسدس وهو الذى يطلقه على الشيخ . وانظر الى هذا الشباب المضيع وقد انتقم لنفسه من هذا الشيخ فهو يسقط صريعاً .

يونيو سنة ١٩٢٧

زوجها

قصة تمثيلية للكاتبين الفرنسيين « بول جيرالدى وروبير سبيتزر »

بول جيرالدى كاتب يفتن به المترفون فى شعورهم وعواطفهم من الفرنسيين ، لأنه مترف فى شعوره وعواطفه ، ومترف بنوع خاص حين يحلل العواطف والشعور . تناول طائفة من الموضوعات فى قصصه التمثيلى فاستطاع أن يبلغ من دقة التحليل ولطف المدخل إلى القلوب ما أسرع به إلى بيت موليير وأنزله منه منزلة رفيعة . ولست أدرى أيذكر القارئ أنى تحدثت إليه فى غير هذا الموضع عن قصة من قصصه التمثيلية سمّاها الحب ، وحلل فيها الصلة بين زوجين متحابين يعرض لهما من أسباب الفتنة ما يصرف المرأة عن زوجها حيناً ، ثم تتكشف الخبرة لهذه المرأة عن حقيقة الأمر فتتبين أنها كانت مفتونة لا عاشقة ، وأن حبها إنما كان مقصوراً على زوجها حتى فى أشد أوقات الفتنة . ذلك لأن الحب شىء غير الشغف وغير الهيام وغير هذه الشهوات التى تملك النفس فتفسد عليها الأمر حيناً . فيه ثقة تمكن المتحابين من أن يطمئن كل منهما إلى صاحبه ، فلا يسمح لنفسه بالشك فيه ولا يتخيل هذا الشك

وتمكنهما من أن يعتمد كل منهما على صاحبه اعتماداً لا حدَّ له . فيه هذه الثقة التى تمكن الزوج من أن يجيب امرأته حين أنبأته بأن فلاناً يتبعها بحبه وطلبت إليه أن يحميها من هذا الحب : « مثلك لا يحتاج الى حماية ولا حراسة ، ولا خير فى حب يتكلف صاحبه أن يقوم دونهُ يدفع عنه المغيرين » . ثم فيه الى جانب هذه الثقة ألوان من الذكرى يسيرة ضئيلة فى نفسها ، ولكن الحب يتألف منها ، أو قل إنها هى التى تؤلف حياة المتحابين .

وقد وفّق بول جيرالدى فى هذه القصة توفيقاً عظيماً دون أن يحتاج إلى حركة أو مشقة فى تدبير هذه الحركة ، وإنما هى كلها حوار بين الزوجين أو بين المرأة وذلك الذى أراد أن يفتنها . ثم لم يقف توفيق بول جيرالدى عند هذه القصة بل تجاوزها إلى قصة أُخرى فتنت الباريسيين فى السنة الماضية ، وهى قصة « رو بير وماريان » وهو على هذه الإجادة فى التمثيل شاعر مجيد دقيق ، يحبه الفتيان والفتيات ، ويقرءون له بنوع خاص ديواناً صغيراً عنوانه « أنت وأنا » تناول فيه العلاقة بين العاشقين من نواحى الحياة المنزلية اليومية فى لطف ودعة وخفة روح .

ولكن بول جيرالدى على هذا كله صاحب جدٍّ ، وحظه من الهزل قليل . هو مترف فى جدّه خفيف الروح ، يحاول الدعابة والفكاهة ولكنه لا يبلغ منهما ما يريد ، أو هو لا يريد أن يبلغ منهما شيئاً . وكأنه كان

محتاجاً إلى أن يعينه زميله الذى اشترك معه فى وضع هذه القصة التى أتحدث إليك فيها اليوم . كان محتاجاً إلى هذه المعونة ليلائم بين جِدّه وفلسفته المترفة و بين ما يحتاج إليه الباريسيون فى هذه الأيام من الفكاهة واللهو حتى فى أوقات الجدّ والتفكير العميق . وقد ظفر بول جيرالدى من معونة زميله بما أحب و بما أحب الباريسيون، فجاءت هذه القصة الأخيرة آية فى الجد والفكاهة معاً . فأنت لاتستطيع أن تمضى فى قراءتها دون أن ترى نفسك مغرقاً فى الضحك ، ولكنك فى الوقت نفسه مغرق فى التفكير والتأمل . ذلك لأن الموضوع كله جد ، ولكن الصورة كلها هزل لفظ رشيق فيه عبث كثير ، ولكن من دون هذه الرشاقة والعبث حقيقة من هذه الحقائق التى يجب على كل إنسان أن يفكر فيها وأن يلائم بينها و بين سيرته مع زوجه .

وفى الحق أن روحى هذين الكاتبين قد التأما فى هذه القصة التئاماً بديعاً . وحسبك أنهما استطاعا أن يحملاك على أن تفكر فى أشد الموضوعات خطراً دون أن تجد فى ذلك مشقة أو عنفاً ، بل على أن تجد فى ذلك لذة لا تعدلها لذة . ولكن هذه المشقة التى لا تجدها أنت حين تقرأ القصة أجدها أنا حين أحاول أن ألخصها لك . ذلك لأنى أستطيع أن ألخص لك موضوعها وغرضها ، ولكنى لن أستطيع أن ألخص لك شكلها وصورتها وحوارها وما فيه من رشاقة وخفة وسرعة ؛ فكل ذلك لا سبيل إلى نقله إلا فى ترجمة دقيقة ليست من السهولة واليسر بحيث تظن .

فلاعرض عليك ما أستطيع من هذه القصة معترفاً منذ الآن بأنهُ تلخيص للموضوع لا أكثر ولا أقل . ولأسلك فى هذا العرض الطريق التى تعودت أن أسلكها فى غير هذه القصة ، فأضع أمامك الأشخاص كما أراد صاحب القصة أن يكونوا .

والقصة تعتمد قبل كل شىء على التناقض بين شخصين متباينين تبايناً تاماً فى الطبيعة والذوق والمزاج ، ولكنهما يخدعان عن نفسيهما ويخيل اليهما أنهما متفقان مؤتلفان لا تباين بينهما ولا تناقض .

فأما أحد هذين الشخصين فالزوج ، واسمه « مكسيم مينار » رجل من أغنياء باريس وأصحاب الأعمال فيها ، رجل كغيره من الناس ، عادى فى ذوقه ومزاجه ، وربما كان إلى الطبقة السفلى أقرب منه إلى الطبقة العليا ؛ فإن امتاز بشىء فهو يمتاز بجده فى العمل ومهارته فى تصريف الأمور المالية ؛ وهو لذلك كثير الصمت قليل الكلام قليل الحركة أيضاً ، لا يكاد يتصور الحياة إلا على أنها انهماك فى العمل حين يكون فى مكتبه ، وأكل ونوم حين يأوى إلى بيته . وهو على ذلك قانع بهذه الحياة ، يرى فيها المثل الأعلى للسعادة . وهو لا يفهم من الزوجية إلا أن يرى امرأته فى البيت زينة له وأداة للهوه الذى لا يصيب منه إلا قليلاً من حين إلى حين . وهو يفهم الأمانة الزوجية كما يفهمها غيره من الناس ، لا يخون زوجه ولا يريد أن تخونه زوجه ، يكره العبث ، ويسىء الظن بكل لون من ألوان المجون والمزاح ، ولكنه مع

هذا كله ضعيف طيب القلب مستعد للعفو إن وقع له ما من شأنه أن يحفظ الرجال . هو رجل طيب ولكنه يعيش فى الأرض وليس له جناحان يستطيع أن يرتفع بهما فى الجو ولو قليلا .

أما امرأته « جاكلين » فجميلة خلابة ككل نساء القصص . ولكنها تناقض زوجها أشد المناقضة ، فهى قوية الخيال تعيش فى السماء لا فى الأرض ، لا ترى الناس كما هم وإنما تراهم كما تحب أن يكونوا ، تصوغهم صوغاً خاصاً ، وتُسبغ عليهم صورتها الخاصة ، ثم تعيش معهم بعد ذلك عيشة راضية ملؤها الصفاء والطهر والثقة والإيمان . ذلك أن نفسها تتصف بهذه الصفات كلها ، فهى راقية تتنزه عن الدنيات . وهى طاهرة لا يكاد يخطر لها الإثم على بال . وهى مطمئنة على نفسها فيبعثها ذلك على أن تطمئن إلى الناس وتثق بهم ثقة لا حد لها . وهى على هذا كله مترفة فى تفكيرها وشعورها ، رقيقة العاطفة رقيقة المزاج قوية الحس ، تألم لكل شىء وتسر لكل شىء ، وتنتقل من الألم إلى السرور ومن السرور إلى الألم فى سرعة غريبة ، تعيش فى حلم مستمر وهى بعد هذا كله قد صاغت زوجها فى صورة ملائمة لصورتها ، فاستيقنت أنه أجل الناس ، وأكرمهم ، وأرقهم طبعاً ، وأصفاهم مزاجاً ، وأبعدهم نظراً ، وأصدقهم حكماً على الأشياء والناس أيضاً ، حتى إذا أسبغت عليه هذه الصورة الجميلة الخلابة أحبته وفتنت به ، واندفعت فى هذا الحب والفتنة إلى أقصى أمد ممكن ، وأخذت تؤول عيوبه على أنها

محاسن ومزايا . هو كثير الصمت لا يتحدث إليها فى الحب والغزل ذلك لأنهُ رقيق دقيق ، ولأن الحب أجل من أن يتناوله الكلام ، ولأن الكلام يفسد الحب إذا تناوله . وما حاجتها إلى الكلام ! أليس يكفى أن ينظر إليها زوجها فترى فى هذه النظرات ما تشاء من حب وشغف وولاء وإخلاص ! وهو لا يحب اللهو ولا السمر ، وما حاجتها إلى اللهو والسمر ! أليس ذلك دليلاً على أنه رجل جد وعمل ! أليس يكفيها أن تراه وقد عاد إلى البيت فنظر فى رسائله ثم قال بصوت مغضب : ما لنا لا نذهب إلى المائدة ! إن فى هذا كله لحباً وفتنة . وعلى هذا النحو أحبت زوجها وسعدت بحبه ثلاثة أعوام كاملة ، واتخذت نفسها وزوجها مثالاً أعلى للأسرة السعيدة المتحابة . ولكنها كانت تجهل زوجها ، وكانت تجهل نفسها أيضاً ، وكانت فى حاجة إلى حادثة من الحوادث تظهرها على حقيقة نفسها ، وتعرض عليها زوجها كما هو ، وتنزلها من السحاب الذى كانت تعيش فيه إلى الأرض لترى الناس والأشياء كما أراد الله أن يكونوا لا كما صوّرهم الخيال .

ومن غريب الأمر أن فى هذه القصة شخصاً ثالثاً يناقض «جاكلين» من بعض الوجوه ، ويوافقها من بعضها الآخر ، وهو مثل شائع الآن فى فرنسا . هذا الشخص هو « جيزيل » أخت « جاكلين » . فتاة تدرس الطب ، حرة فى لفظها وحركاتها وسيرتها ، مسرفة فى هذه الحرية ، لا تتحرج من أن تستعمل فى لغتها ألفاظاً يألفها الطلاب وحدهم وينفر

منها المترفون ، ولا تتحرج من أن تقضى يومها وشطراً من ليلها مع الشبان فى لهو وعبث ومجون ، ولا تكره أن تعود إلى بيتها بعد منتصف الليل وقد لهت ورقصت وصاحبها إلى البيت شاب من زملائها فى الدرس ولكنها على هذا كله طاهرة السيرة ، تستطيع أن تقول لأختها إنها على عبثها ولهوها لا تزال عذراء وستظل عذراء . وهى لا تكره أن تعلن إلى أختها فى صراحة أن الحب قد بطل فى هذا العصر ، وأن البدعة إنما هى فى الدعابة والعبث ليس غير . ومن دون هذا كله قلب خيّر ملؤه البر والحنان ، ونفس راقية تحب المثل الأعلى وتطمح إليه ، ولكنها تراه عزيزاً فتتسامح ، وتنظر إلى الحياة مبتسمة فى شىء من السخرية المرة تغشيها حلاوة متكلفة . هى كأختها لولا أن حظها من العقل يفوق حظها من الخيال

وهناك شخص رابع هو أم هاتين الفتاتين ، امرأة متقدمة فى السن تمثل عصرها وتعيش غريبة فى هذا العصر الجديد ، لا تفهم «جاكلين» لأنها تعيش فى السحاب ، ولا تفهم « جيزيل » لأنها تحللت من القيود المألوفة ، وهى معذبة بينهما دائماً أنهما ستقتلانها

ثم هناك شخص خامس نستطيع أن نقول إنه البطل الثانى من أبطال هذه القصة ، وهو « اندريه مورو » شاب قد جاوز الثلاثين قليلاً ، حسن الطلعة ، متقن الزى ، غنى ، متصل بالأسر الراقية ، شديد الحياء ولكنه حاد العاطفة والمزاج ، ضعيف فيما يظهر لا يكاد يملك نفسه

ولايسيطر على عواطفها ؛ أكاد أرى أن الكاتبين قد خلقاه خلقاً و بعدا به بعض الشيء عن الأشخاص المألوفين . وهو كما خلقاه خفيف الروح جذاب ، عذب اللسان منطلقه ، يندفع فى ذلك حتى يخيل اليك أنه مجنون ، وهو فى حقيقة الأمر مجنون ، قد ذهب الحب بعقله حيناً فأصبح كهؤلاء الذين يخضعون للتنويم المغناطيسى.

✲ ✲ ✲

هؤلاء هم أشخاص القصة . والقصة فى نفسها قصيرة كما أن الوقت الذى تقع فيه قصير ، لايكاد يتجاوز اليومين . أو قل لايكاد يبلغهما . وهى تذكرنا كما قلت بقصة الحب لولا أن الزوجين فى قصة الحب كانا مؤتلفين فى رقة الطبع ورقى النفس ، وهما فى هذه القصة مختلفان ، ومن هنا انتصرت الزوجية فى قصة الحب ، وانهزمت فى هذه القصة ، لولا أن قصة الحب جد كلها ، وهذه القصة جد قد صيغ فى لفظ فكاهى

✲ ✲ ✲

نحن فى بيت «جا كلين» آخر النهار وقد فرغت من استقبال زائريها فى هذا اليوم الذى تعودت أن تستقبلهم فيه كل أسبوع ، وخلت إلى أختها « جيزيل » فكان بينهما حديث نفهم منه الفرق بينهما فى الطبيعة والمزاج ، هما تتحدثان عن صديقة لجا كلين ، فأما « جا كلين» فمفتونة بها قد أسبغت عليها صورتها الخاصة وأخذت تسرف فى الثناء عليها . وأما « جيزيل » فقد رأتها كما هى ، وأخذت تهون من شغف أختها .

وتمضيان فى الحديث فتتناولان أشياء كثيرة يظهر فيها ما بينهما من الاختلاف فى الذوق والحكم ، ولكن يظهر فى الوقت نفسه أن بينهما حبا ومودة تقربان مسافة هذا الخلف وتعطف كلاً من الأختين على الأخرى . وقد لامت « جاكلين » أختها لأنها لاتزورها كثيراً ولاتثق بها ولاتطمئن إليها فى الحديث ، واتفقتا بعد حوار طريف على أن تستأنفا حياة الأختين فى ثقة وطمأنينة . وقد فهمنا من هذا الحديث أيضاً أن « مكسيم » مسافر لبعض عمله فى بلجيكا ، ورأينا حب « جاكلين » إياه ، وفهمنا أن « جيزيل » مزورة عنه بعض الازورار . وتقبل أمهما مضحكة مضطربة لاتدري علام تقبل من الأمر ، أتمكث مع ابنتها أم تعود إلى بيتها ، ثم يستقر رأيها على العودة فتنصرف مع ابنتها الفتاة وتخلو « جاكلين » إلى نفسها . فنحس أنها تشعر بشىء من الضجر بوحدتها ، وهى تريد أن تنصرف إلى غرفتها فتتناول فيها العشاء ، وهى تهم بذلك لولا أن الخادم يُدْخِل عليها رجلاً ، تنظر إليه فاذا هو « مورو » . وكانت قد رأت هذا الشاب مرة واحدة فى بعض الأسمار فأنست إليه وأنس إليها ، وتحدثا فأطالا الحديث . وأقبل هذا الشاب يزورها في يوم استقبالها ، ولكنه أقبل متأخراً فيعتذر من هذا التأخر أول الأمر ثم يعترف بأنه تعمده بعد ذلك ، ثم يفتن فى الثناء على « جاكلين » ويظهر اغتباطه بذلك الحديث ، ثم يهم بالانصراف معتذراً ولكنه يلتمس سبيلاً للبقاء ، أو يلتمس سبيلاً إلى العودة ،

فيعرض على صاحبته أنه يريد أن يستشيرها فى أمر ذى بال ، وأن الوقت متأخر فهو يستأذنها فى أن يعود ليستشيرها في زيارة أخرى . أما هى فنكاد نحس رضاها عن هذا الحديث وميلها إلى هذا الفتى . وقد أذنت له أن يعود ، ثم بدا لها فأمرته أن يبقى ، وأن يعرض قصته فوراً . فيبقى ، و ينبئها بأنه اختلف فى الشتاء إلى إحدى الأسر فاتصلت المودة بينه و بينها ، وفى هذه الأسرة فتاة ، فأحس أن الأسرة تطمع فى أن يخطبها ، فهو مضطرب لايدرى أيقطع الصلة بينه و بين هذه الأسرة لأنه لا يريد أن يتزوج أم يحتفظ بها . أما « جاكلين » فتدهش لأن صاحبها يستشيرها فى مثل هذا الأمر وهى لا تكاد تعرفه ، ولكنه قد أنس إليها حين رآها فى المرة الأولى ورأى منها صراحة ونصحاً و إخلاصاً فطمع فى أن يستشيرها واطمأن إلى رأيها . وهى لا تدرى بم تشير عليه ولكنها ، كما قدمت لك ، طيبة النفس ، صادقة العاطفة . فانظر إليها وقد اندفعت تلوم صاحبها لوماً عنيفاً لأنه يستشيرها فى مثل هذا الأمر وهى ترى أنه أمر لا يحتمل المشورة ، فأنت بين اثنتين : إما أن تحس بشىء من الميل إلى هذه الفتاة ، واذاً فاحتفظ بالصلة وامض حتى تنتهى إلى الزواج و إما ألا تحس شيئاً و إذاً فلا ينبغى أن تطمع هذه الفتاة ولا أن تضللها . وصاحبنا لايحس شيئاً و إذاً فسيقطع الصلة . ولكن «جاكلين» يروعها هذا وتشفق أن تكون مشورتها عقبة فى سبيل السعادة الزوجية التى تطمع فيها هذه الفتاة ، فتنصح لصاحبها بالأناة والتفكير ، وتندفع

فى حديث عن الحب لذيذ كله حرارة وصدق و إخلاص، وقد اندفعت فيه حتى تناولت نفسها وزوجها وسعادتهما ، ولم تفكر أو قل لم تشعر بما تترك فى نفس هذا الشاب من الأثر . وهى تجد لذة فى حديثها إليه ، وهو يجد لذة فى الاستماع إليها ، وما تزال فى الحديث وما يزال هو في الاستماع والسؤال أحياناً حتى ينتهى الأمر إلى أقصاه ، وقد خلبت الفتى وحببت إليه الزواج ، فاستقر رأيه على أن يُسرع إلى بيت الفتاة فيخطبها من فوره . وهى الآن تنصح له ألا يتعجل فى الخِطْبة بعد أن كانت تنصح له ألا يتعجل فى القطيعة .

وقد فهمنا من كل هذا أنها تجد لذة فى الحديث إلى الفتى ، وأن الفتى مفتون باستماع حديثها . وهما فى ذلك وقد تقدم الليل و إذا « مكسيم » قد أقبل ولم يكن منتظراً إنما كانت تنتظر عودته من الغد . أقبل فلم يجد أحداً من الخدم ، وعالج باب الدار حتى فتحه ، وتقدَّم حتى انتهى إلى غرفة الاستقبال دون أن يظفر بخادم ، فلما دخل الغرفة رأى زوجه تتحدث إلى أجنبى . دهِش ودهشت وبُهِتَ الزائر ونهض مودّعاً وانصرف ، وخلا الزوجان ، ولكن بينهما شيئاً . أما هى فلم تكن تنتظر هذه العودَة ، وأما هو فلم يكن ينتظر أن يرى هذا الأجنبى ، ولم يكن ينتظر أن تستقبله امرأته هذا الاستقبال ولا سيما وقد قدّم عودته يوماً وأبرق بذلك إلى امرأته ، ولكن الرسالة لم تصل إليها ، وقام الدليل على ذلك فوصلت الرسالة أثناء حوارهما . ولكن فى نفس الرجل شيئاً على

كل حال ، فهو يسأل عن هذا الأجنبى فى شىء من الازدراء أول الأمر ، ثم تشتد عنايته به شيئاً فشيئاً و يظهر الشك قليلاً قليلاً . والمرأة مخلصة فى الاغتباط بعودة زوجها ، ولكن هذا الشك يؤلمها . يدهشها أوّلاً ، ثم يؤذيها ، ثم تحس الإهانة ، ثم تكبر نفسها وترى أنها أرفع من أن تهبط إلى حيث تدافع عن شرفها ، و بينما تغلو فى الكبرياء يغلو زوجها فى الشك . و بينما تؤثر الكبرياء فيها فيظهر عليها الغضب يظن زوجها أن هذه آثار الخوف والريبة ، وما هى إلا أن ينتهى إلى اللوم ثم إلى التعنيف ، وكلما مضى فى ذلك اشتد سخط المرأة و كبرياؤها ، فخيل إليه أن الخوف والذعر هما اللذان يشتدّان ، حتى ينتهى به الأمر إلى الاتهام ، و ينتهى بها هى الأمر إلى أن تزدرى زوجها فتتهم نفسها أيضاً . وقد انتهت الغيرة بالرجل إلى أقصاها ، وانتهى الغضب والكبرياء بالمرأة إلى أقصاهما فتركت زوجها وأغلقت من دونه الباب .

* * *

فاذا كان الفصل الثانى فنحن حيث كنا فى الفصل الأول من الغد ، و « جاكلين » منصرفة إلى أعمال بيتها تأمر خادمها ببعض الشأن . ونحن نحس أنها تألم وأنها ترى أن قد أهينت فى كرامتها و كبريائها ، ولكنها لا تقول شيئاً ، ولا تظهر شيئاً . ولكن هذه أمها قد أقبلت فى شكلها المضحك دائماً ، وهى مضطربة مذعورة ، فإذا رأتها ابنتها خيّل إليها أنها مريضة ، ثم ظنت أن أختها قد آذتها ، ثم تبينت آخر

الأمر أن زوجها قد ذهب إليها وقص عليها ما كان أمس وغلا فى القصص ، فيسوءها ذلك ويؤذيها فى شرفها وكبريائها . ولكنها تطمع فى أن تكون أمها قد دافعت عنها . وقد فعلت أمها فنهرت الرجل وقالت فى ابنتها ما تقوله الأمهات . و « جاكلين » إذاً سعيدة تقبّل أمها فى حنان وبِرّ . ولكن لا تلبث الشيخة أن تطلب إلى ابنتها أن تستعطف زوجها وتصلح ما بينهما من الأمر . فإذا مضت فى الحديث قليلاً أحسَّت « جاكلين » أن أمها قد صدّقت ما قال فيها الزوج فتكلفت الدفاع ، ولكنها مقتنعة فيما بينها وبين نفسها بأن ابنتها آثمة ، فيؤلمها ذلك ويؤذيها إيذاء شديداً تكتمه ولكنه مع ذلك ظاهر ، لا تكاد تفهمه الشيخة ، ونفهمه نحن فى وضوح وجلاء .

وهذه « جيزيل » مقبلة . ولست ألخص لك محاولة الشيخة إقصاءها وإخفاء الأمر عليها فى حوار بديع وحركات مضحكة ، ولكنها قد دخلت على كل حال وخلت إلى أختها ، وهى تذكر ما كان بينهما من عهد أمس ، وقد سمعت « مكسيم » وهو يحدِّث أمها بالقصة فأقبلت تؤاسى أختها وتظهر لها العطف والنصح والمودة . واسمع لها تهنىء أختها بأنها قد اتخذت لها خليلاً وخانت هذا الزوج الذى لا يستحق إلا أن يخان ، وإذاً فهى أيضاً تتهم أختها وتصدّق فيها الفاحشة ! فلا يزيد ذلك « جاكلين » إلا ألماً ويأساً ، ولكنها تملك نفسها وتأخذ الأمر فى سخرية وعبث من دونهما ألم شديد .

وهن فى ذلك و إذا الخادم يستأذن لمورو ، فأما الشيخة فيُحنقها ذلك . وأما « جاكلين » فتستقبله ، وهى تستقبله باسمة وهو يقص عليها أمره وأنه خرج من عندها أمس متأثراً مفتوناً فلم يملك نفسه فذهب إلى أهل الفتاة وجلس إليها ، ثم لم يلبث أن تحقق أنها لا تُرضى مَثَلَه الأعلى ، فانصرف عنها وعدل عن اتخاذها زوجاً . وهذا كله يُلهى « جاكلين » ويلذها ويسلّيها بعض الشىء . ولكن الفتى يمضى فى حديثه فيخبرها بأنه و إن كان قد انصرف عن هذه الفتاة وعرف أنهُ لا يحبها ، يشعر مع ذلك بأنهُ يحب . وآية ذلك أنهُ لم ينم الليل ، وأنهُ يرى الحياة قد تغيرت كلها ، فهو إذاً يحب ، ولكن مَنْ يحب ؟ وهو يفكر ويسأل نفسه . وانظر إليه وقد كشف الحقيقة فجأة وأعلنها فجأة : فهو يحب « جاكلين » ويعلن إليها ذلك فى لهجة مضحكة مؤثرة معاً . وهى تدهش لذلك أول الأمر ، ثم تغضب ثم تثور ، ولكن هذا كله لا يزيد صاحبنا إلا اقتناعاً بأنهُ يحبها و إلحاحاً فى إعلان هذا الحب وهى تنهره وتطرده و تُقصيه ، ولكنهُ لا يزيد إلا إلحاحاً و إصراراً . ثم يستكشف أنها هى لا تكرهه وقد لا تحبه ، ولكنها تميل إليه بعض الميل . ويستدل على ذلك بأنسها إليه لأول ما لقيته واطمئنانها إليه فى المرة الثانية . وهى تدفع عن نفسها مغضبة ثائرة وقد زاد ذلك فى إيذائها ، فزوجها يتّهمها ، وأمها وأختها يصدّقان هذه التهمة ، وهذا الفتى لا يستبعد التهمة أيضاً . وقد انتهت إلى إخراج هذا الفتى ولكنها

عذرت زوجها وأخذت تلوم نفسها على هذا الكبر الذى وضعها هذا الموضع السيىء وقبلت أو رغبت فى أن ترى زوجها وتستعطفه وتظهره على جلية الأمر . ويُقبِل زوجها ، فتتلقاه باسمة واثقة مطمئنة وتترضاه ، ولكنها كلما حاولت أن تبسط له حقيقة الأمر مضى هو فى الاتهام ثم انتقل منه إلى العطف ثم إلى العفو . فهو إذاً يأبى إلا أن تكون زوجه آثمة ، وكبرياؤها تأبى أن تصرح له بجلية الأمر . وقد وقع بينهما ما لم يكن بدٌّ من وقوعه ، وظهر أنهما مختلفان اختلافاً أساسيًّا ، فهو لا يؤمن بها ولا يقدّسها بل يراها كغيرها من النساء ، وهى تألم لذلك ولكنها تقبله وتخفى الألم وتشكر زوجها على العفو إذا طلب إليها هذا الشكر .

* * *

فاذا كان الفصل الثالث فنحن حيث كنا فى الفصلين الأولين من الغد ، ولكننا نرى « مكسيم » ضيق الصدر ينتظر امرأته التى خرجت فأبطأت فى العودة ، وقد جاء ميعاد الغداء وهو جائع يتضور ، ويطلب إلى الخادم ما يتبلّغ به . وهذه « جاكلين » مقبلة ، فهو يلقاها ساخطاً لائماً ، يعنّفها لأنها بعد الذى كان أمس قد أسرفت فى عدم الاكتراث به . أما هى فتجيبه فى سخرية مؤلمة بأن هذا اللون من التشديد لا يليق به بعد هذا العفو الذى أصدره أمس ، على أنها قد تناولت غداءها فى باريس فى أحد المطاعم ، وعلى أنها لا تعرف أين تتعشى ، وعلى أنها قد تريد أن تذهب إلى أحد المراقص . وكل هذه الأحاديث يدهش لها

« مكسيم » ثم يغضب ، ثم يحاول أن يستعمل سلطته وأن يقهر امرأته على أن تحيا حياة ملائمة . ولكنها تنكر عليه ذلك فى سخرية . أليس قد عرف أنها آثمة ثم عفا عنها فهو إذاً يبيح لها الإثم ! فليبح لها الحرية. وهما فى هذا الحوار و إذا أمها مقبلة ، فينصرف الرجل إلى غدائه ، وتعلن الفتاة إلى أمها فى شىء من الإبهام والسخرية أنها لا تحب زوجها ، وأنها قد عرفته وكشفت أمره وقد كانت تجهله ، فهو رجل كغيره من الناس ، وأمها لا تفهم من هذا الحديث شيئاً . و يفرغ الرجل من غدائه و يعود فيسأل امرأته كيف تريد أن تقضى بقية النهار فلا تجيبه بشىء مقنع ، ثم تنصرف عنه مع أمها إلى غرفتها . وتقبل « جيزيل » ، فاذا لقيها تنكّر لها وتنكّرت له ، ثم كان بينهما حوار لذيذ يفهم منهُ «مكسيم» أن امرأته بريئة ، وأنها لم تأثم ، ونفهم نحن أن هذه الفتاة نادمة لأنها أساءت الظن بأختها وآذاتها فى شرفها . والرجل لا يعرف كيف يحتال فى إرضاء امرأته ، فهو يقترح ألواناً من الترضية يريد أن يستعطفها و يريد أن يهدى إليها هدية ، و يريد أن يقبلها . ثم يبدو له فيرى أن الحل الملائم إنما هو أن ينصرف ، وكذلك يفعل . وتأتى « جاكلين » فاذا رأت أختها كان بينهما حوار جاف نفهم منه ألم « جاكلين » وندم الفتاة وحنانها وكبرياءها أيضاً .

ولكن هذا الخادم يستأذن لمورو ، فترفض استقباله ، ثم يعود الخادم فيلح وينبىء بأن مورو قد جلس وأعلن أنه لن ينصرف ،

فتأذن له مغضبة وتستقبله منتهرة زاجرة . ولكنه الآن هادىء مطمئن رزين يطلب إليها فى صوت كله دعة وطمأنينة أن تتفضل بتناول العشاء عنده مع زوجها . أما هى فترفض مغضبة ويلح هو متلطفاً فتأبى . وقد أخذت تدهش لأنه لا يتحدث إليها فى حبه ، وهى لا تملك نفسها أن تسأله : أثاب إلى الرشد منذ أمس ؟ فيعتذر فى دعة وهدوء . وكأنها تألم لتغير لهجته ، وكأنها كانت تريد أن تراه مشغوفاً مفتوناً فتنهره وتزجره فأخذها شىء من الحزن حين رأته هادئاً يعتذر ، فهى تلومه فى لطف وحزن على ما كان منه أمس . وانظر إليه وقد انفجر وترك ما كان فيه من دعة وهدوء وأخذ يعلن إليها أنه يحبها ويحبها ويحبها ، وأنه إنما تكلف هذا العشاء وهذا الهدوء ليستطيع أن يراها وأنه كان يريد أن يعتدل ويهدأ ويزورها من وقت لآخر زيارة هادئة محتشمة مكتفياً بذلك ، فأما وقد أبت إلا أن يتكلم فهو يتكلم ، وهو يحبها ويحبها ويحبها . ونحس نحن أنها تجد شيئاً من اللذة فى أن تسمع هذا الحديث ، ولكنها مع ذلك مغضبة ثائرة تنهره وتزجره وتزعم له أنه لا يعرف من أمرها شيئاً ، ولا يستطيع أن يحبها . ويأخذ هو فى وصفها ، حتى إذا انتهى إلى أنها سعيدة فى حياتها المنزلية أنكرت عليه ذلك وألحت فى الانكار فاذا هو سعيد مغتبط ، يرى أنه قد هان كل شىء فى سبيل حبه ، فهو يُقْبِل عليها يأخذ بيدها ويدعوها إلى أن تمضى معه ، وهو يهم بتقبيلها وهى تدافعه عن نفسها فى قوة شديدة وضعف شديد معاً . وهى قد

اضطرت إلى أن تستخدم آخر سلاح فتعلن إليه أنها عاشقة وأن لها خليلاً . . . يصدّق ذلك أوّل الأمر ، ثم لا يلبث أن يفطن فينكر وينكر فى عنف ، ويعلن إليها أنها تكذب لتدافع عن نفسها ، وأنه لن يصدّق شيئاً من هذا وأنه لو رآها بين ذراعى رجل لما صدّق أنها عاشقة . وهو كلما مضى فى هذا الحديث صادف منها قبولا ورضا . وانظر إليها الآن مطمئنة هادئة ، ولكنها تبكى في صمت وتشكر له إيمانه بها وحسن رأيه فيها ، ثم تطلب إليه أن ينصرف الآن ، فاذا أبى ألحت عليه فى رفق وفهمنا أنها تحبه ، وأنها تعترف بهذا الحب . ولم لا ؟ فهو الشخص الوحيد الذى آمن بها وبرأها من هذه التهمة . وهو يقبل أن ينصرف ، ولكن على أن يعود إذا عجز عن المضى فى طريقه . وما يكاد يخرج حتى يعود زوجها باسماً مبتهجاً ، فينبئها بأنه قد استأجر لها مكاناً فى الأوبرا حيث الرقص هذا المساء ، ولكنها تعتذر . وإذاً فسيصحبها زوجها للعشاء فى أحد المطاعم ، ولكنها تعتذر . وإذن فسيبقيان فى البيت ولكنها تستدنيه وتنبئه بأنها لا تحبه وقد انصرفت عنه . أما هو فمغرور مفتون بنفسه واثق بسلطانه فهو لا يحفل بهذا الاعلان ولكنه يمضى فى حديثه مداعباً هازئاً وهى تطلب إليه حريتها فيجيبها فى دعابة وهزء وقد أقبل الخادم يستأذن مرة أخرى لمورو . فيأذن له مبتهجاً بلقائه ، ويعتذر إليه بأنه أساء لقاءه فى المرة الأولى فقد كان متعباً من آثار السفر ، وهو يدعوه إلى العشاء معهما هذه الليلة ، فيعتذر الفتى محرجاً .

ويعلن « مكسيم » أسفه ويلح فى أن يتعشى معهما فى إحدى ليالى الأسبوع . ثم يعتذر ببعض العمل وينصرف عمداً تاركا لزوجه ترتيب أمر العشاء .

فاذا انصرفت نظر كل من العاشقين إلى صاحبه فى شىء من الحرج والضيق ثم جلس الفتى وطال الصمت حيناً ثم أعلن إليها فى هدوء أن اسمه الخاص أندريه . . .

يوليو سنة ١٩٢٧

فهرست

	ص
ميشيل بوبير	٥
الاغواء	٢١
الغربان	٣٩
صـوت	٥٥
انتوانيت ساربرييه	٧٣
الشاب الجميل	٨٩
الفؤاد المقسم	١٠٩
سعادة اليوم	١٣١
زوجا ليونتين	١٤٩
الملهى	١٦٩
زوجها	١٨٧

١٩٤٣/٣/١/٩٨٤

A66

AL-MAAREF
1890 - ١٨٩٠

COLUMBIA UNIVERSITY
0026815176

893.7H954
W3
2

BOUND
JUL 24 1956

1072923